منصور بوشناف

THE GOLDEN DOG

الكلب الذهبي

رواية

دار الفرجاني

منصور بوشناف

THE GOLDEN DOG

الكلب الذهبي

رواية

دار الفرجاني

الكلب الذهبي

منصور بوشناف

كاتب مسرحي، وروائي من مواليد ليبيا العام 1954. سجن لمدة عشر سنوات خلال السبيعنات والثمانينات من القرن الماضي نتيجة لنشاطه السياسي وكتاباته الناقدة، واشتهر من خلال مسرحياته التي حازت على عدة جوائز. صدرت روايته الأولى (العلكة) في طبعة محدودة عن (دار ليبيا للنشر) والتي أدارها الكاتب الراحل (إدريس المسماري) وتعرضت الرواية للمنع من التداول في ليبيا. صدرت الرواية بترجمتها الانكليزية العام 2014 عن دارف للنشر ببريطانيا كما ترجمت إلى الفرنسية العام 2016.

منصور بوشناف

الكلب الذهبي

رواية

دار الفرجاني

دار الفرجاني

الطبعة الأولى 2021

جميع الحقوق محفوظة للكاتب منصور بوشناف ©

ردمك ISBN 9789775496799

رقم الإيداع: 21794 / 2020

9 ميدان الذهبي

منشيه البكري

القاهرة

جمهورية مصر العربية

Tel: +201001619295

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

ليبيتشيو العجيب

بطل قصتي هذه التي أشرع الآن في كتابتها ليس حقيقياً، ولا وجود حقيقي له إلاّ في مخيّلتي. وقصّتي لم تحدث لأتذكّرها وأكتبها. إنني ألعب دور الراوي الذي وجد نفسه أمام جمهوره، ولا قصة لديّه ليرويها: لا تفاصيل، ولا أحداث. فقط أعجوبة، أو أمثولة ولدت في مخيّلتي وأنا أجلسُ للكتابة.

أعجوبة (التحوّل)، أو بالأحرى المسخ. إنها بالتأكيد معروفة ومتكررة. أعني أن يمسخ الله كائناً ما إلى كائن أقل مكانة، ويحوّله إلى صورة أبشع مما كان عليه.

غالبية قصص المسخ تحدث لبشر يتمتعون بالجمال، ويرتكبون خطأ يغضب الآلهة، أو يصابون بغرور ونرجسية، أو يكونون ضحية سحر، المهم أننا غالباً كمستمعين، أو قرّاء لتلك القصص، نصاب بالتعاطف مع أولئك المسوخين، وقد يذرف بعضنا الدموع لأجلهم، ونتطهّر من كل أوساخنا الروحية لتكون تلك القصص (الأماثيل) ناجحة ومؤدية لأغراضها النبيلة.

(لوكيوس) بطل (الحمار الذهبي)، مثلاً، كان أمثولة ولدتْ وكبرتْ برأس رجل من شمالنا الافريقي هو (أبوليوس)، وصل إلى (طرابلس) التي أجلس بها الآن، محاولاً تأليف (أمثولة) عن (المسخ والتحول). كان الرجل قد وصل في النصف الأول من القرن الثاني للميلاد، وهو قرن تحولات كما هذا القرن، إلى طرابلس قاصداً الاسكندرية ومكتبتها الذائعة الصيت ليغرق في تفاصيل الحياة الطرابلسية ويخوض بها مغامرات عاطفية ويعاني ما عانى حماره الذهبي وبطله لوكيوس.

(لوكيوس) لم يرتكب هو الخطأ، فلقد كان مسكوناً بالمثُل النبيلة والسماء، لذا أراد أن يتحول إلى طائر، ولكن حبيبته تعطيه المركّب السحري الخطأ ليتحول إلى حمار ويغرق بدل أن يطير إلى عالم المثل، في قاع المستنقع البشري الرهيب، ويعاني كل آلام الحمير في عالم يسوده البشر.

(أبوليوس) كان كاتباً كبيراً، وكان مسخه كبيراً ورائداً. ربما كان الحب وكُرهُ الزيف والشعور بالظلم وعفونة المستنقع الأخلاقي الذي كان يسود طرابلس والشمال الإفريقي والهيمنة الرومانية، أسباباً مقنعة لكتابة ذاك المسخ اللطيف الرائد.

حمار أبوليوس أو (لوكيوس) المسكين ، لن يشبه بطلي على أية حال ، فهو المسخ الذي كان معروفاً وسائداً. أعني إنساناً يُمسخ حماراً، ولا يربط بينهما الا مجيء أبوليوس ومجيييء انا وبطلي إلى طرابلس ووقوعنا جميعاً في الحب وما فعله بنا ذلك الحب من عذابات وتحولات.

طرابلس، وعلى مايبدو، كانت، ومنذ القرن الثاني للميلاد، (قرن حمار أبوليوس الذهبي)، أو (لوكيوس المسكين)، وحتى هذا القرن الذي أعيش ربعه الأول، وأحاول أن أكتب (مسخاً آخر)، مكاناً مثالياً للتحوّل والمسخ، فها إنني أحاول أن أكتب (مسخاً) في طرابلس بعد عشرين قرن من مسخ أبوليوس الرائد.

المسخ إلى حيوان، أو شجر، أو حجر، هو المسخ، أو التحويل، أو اللعنة المعروفة في غالبية القصص، إن لم يكن فيها جميعاً.

أمير أو أميرة، أو بطل نبيل، يرتكب الخطأ ليكون الغضب واللعنة والمسخ (المصير) إلى حيوان، أو حجر، أو شجر، أو حتى حشرة. المهم يَردُّ (البشر الملعونون) إلى أسفل سافلين، أو إلى قردة خاسئين كما في (القرآن الكريم).

القصة معتادة ومتكررة في الميراث الإنساني منذ قديم الزمان.

تذكرتُ شيئاً هاماً يخصّني عن المسخ، وهو مسخ ليبي بإمتياز، ولا تشوبهُ شائبةٌ أجنبية، وهو ليس من القصة التي أكتب الآن، ولكنّه عن المسخ في تراث مدينتي، أو واحتي التي عشتُ بها، أعني (بني وليد)، الواقعة جنوب شرق طرابلس، والتي تقطنها قبائل (ورفله) الخمسون تقريباً، ويردد كل رواتها وقصاصوها (أمثولة) مسخ (قرزة) التي كانت عاصمتهم منذ القرن الثاني وحتى القرن الرابع للميلاد، مسخها حجراً حيث لازال يمثل أمامهم بشرٌ متحجرون، بعضهم يحرث، وبعضهم يحصد، وبعضهم يصعد نخلة وبعضهم يصطاد غزالاً، إن كل حياة أسلافهم القرزاوين متحجّرة منذ ما يقرب من الألفي سنة.

يقول رواتهم، أعني (ورفله) وشيوخهم، إن الله (سَخَطَ) أهل (قرزة) لأن حاكمهم تزوج ابنته البكر الحسناء فنزل عليهم (سخط) الله، لذا لا تقول (ورفلة) (مَسَخَ) بل (سَخَطَ) قرزة حجراً لتكون عبرة على مرّ الدهور!

بامكاني وقد أجعل ذلك مشروعاً سردياً قادماً، أعني أن أعيد الحياة لأولئك المسخوطين في (قرزة)، لتتحول تلك التماثيل إلى كائنات حيّة تسعى من جديد، مهتدياً طبعاً (ببجماليون) وحتى (سيدتي الجميلة)، ذلك عمل ملئ بالدلالات، قد تحتاجه البلاد والعباد أكثر من قصتي هذه. فعودة الحياة من ذلك (التحجّر) الطويل، سيكون ملحمة ليبية جديدة بإمتياز، ولكنني تورطت الآن في (المسخ)، ولن أتراجع عنه.

من باب الحيل القصصية والبحث عن غرائب القصص، لن يكون بطلي أميراً ولا أميرة، ولا موظف (كافكا)، بل سيكون كلباً! ليس انساناً يمسخ كلباً، بل كلب يمسخ إنساناً. إن ذلك يمنحني الإثارة والغرابة، ويعفي من يقرأ من دموع التعاطف الكاذب مع أبطال الورق النبلاء.

تذكرت شيئاً هاماً اخر عن المسخ والكلاب، هو تصور أمي وعجائز ورفله، في ستينيات القرن العشرين عن التوزيع السكاني لليبيا، وكله عادي، و لاغرائب فيه إلاّ ذلك الجزء الذي تقول إنه يقع في آخر الجنوب الليبي، بعد نهاية مضارب

الليبيين أمثالنا حيث بلاد (برّ الكلب) كما تسمّيها أمي. سكانها بشرٌ بذيول كلاب. المدهش أنني اكتشفت أن (هيرودوت) يقول ما تقوله أمي في كتابه الليبي!

لابأس، إنها أساطير الأولين وأمي!

قصة المسخ والكلاب لم تنته بأمي وهيرودوت، فلقد وصلتُ في تسعينيات القرن العشرين إلى أقصى الصحراء الليبية في رحلة لإكتشاف، والتعرّف إلى كنوز تلك الصحراء ومتاحف فنونها. كنتُ قد نسيتُ، أو تناسيتُ حكاية (برّ الكلب) إلى أن أرشدني دليلنا (التارقي) إلى ركن بجبال (الاكاكوس) من لوحات ماقبل التاريخ، حيث كانت نساء عاريات، يستلقين على ظهورهن، وتظهر فروجهن متفتحة كزهور صبار، ويقف أمامهن رجالٌ عراةٌ برؤوس وذيول كلاب، يتجهّزون لممارسة الحب معهن، كل تلك التفاصيل مرسومة على الجدران بإتقان.

«اوه، إنه الإيروتيك الليبي منذ عشرة آلاف عام» قلت للتارقي، فقال «كلاب رجال».

الكلابُ، كما يقول البعض، كانت بالنسبة لليبيين القدماء رمزاً للخصوبة والقدرات الجنسية العالية. فهي القادرة على الاستمرار في ممارسة الجنس لساعات طويلة دونما توقف. كان ذلك، ولا يزال، يحدث في قراهم وبواديهم وحتى مدنهم، أمام أعينهم. يرجمونها بالحجارة ولا تتوقف. يطردونها بعيداً عن مساكنهم حياءً وحفاظاً على الآداب العامة.

إنني ممتليء بالمسخ إذن، وذلك أمر ممتاز بالنسبة لقصتي التي أكتب. المشكلة ستكون في حيلتي القصصية (أن يكون بطلي كلباً يمسخ بشراً) إن ذلك سيكلفني الكثير من الحذلقة والتصنع، وسيفقدني مهاميز التعاطف والبكاء والتطهّر، فثمة كلب يتسامى انساناً، ذلك (قصّ) تعليمي تربوي تبشيري لا أفضّله.

المسخ من الحيوان، أو الوحش إلى إنسان ليس في النهاية إلاّ لعباً بعد نهايات الألعاب والقصص القديمة. إن عليَّ ألا أكتب مابعد نهاية (الحسناء والوحش) المعروفة، أعني عودة الوحش إلى إنسان (أمير) وسيم كما كان.

كل هذه المحاذير عليَّ أن أجدَ لها الحلول لأكتب مسخاً ليبياً جديدًا وغريباً، وأهم الحلول أن يكون التحوّل، أو المسخ حقاً من كلب إلى إنسان، وألاّ يؤدي ذلك المسخ إلى أي إحساس بالانتصار ووهم (الأنسنة). إن مصير هذا الكلب، بطل هذه القصة، يجب أن يكون (مأساوياً) ومدمراً. وإلاّ فإن اللعبة ستكون مكررة ولا قيمة لها.

(رجال الاكاكوس الكلاب) ليسوا كلاباً تماماً، وليسوا رجالاً تماماً. إنهم هجين بين النوعين. فالأرجل والأذرع والأكتاف وكل تفاصيل أجسادهم (كما تظهر في لوحات ما قبل التاريخ) بشرية تماماً، لا شيء فيهم من الكلاب عدا الرؤوس والذيول التي تتدلى من مؤخراتهم، والخدعة الاكاكوسية واضحة وبسيطة، تصور طقساً للخصوبة وترميزاً لتزاوج بشري ممتع ومنتج. فالرسام يضع للذكر قناعَ كلب على رأسه، ويرسم له ذيلاً. إنه يقول لمشاهد لوحاته «الرجال بقوة وخصوبة الكلاب» أما النساء فعلى حالهن، نساء. إذن خاصيّة التحوّل والفحولة والخصوبة ينالها الذكر في لوحات الخصوبة الاكاكوسية. أنا في قصتي هذه لست معنياً بكل هذه القراءات والتفاسير. إن لوحات الخصوبة الاكاكوسية هذه

تمنحني لحظة التحوّل، أو المسخ. فبطلي سيتحوّل، أو يمسخ إلى (كائن بشري) أثناء ممارسة الحب مع امرأة. إنها تجرّه وتحوّله إلى كائن آخر. ذلك ممكن. فلحظات الحب عاصفة كونية تنقرض فيها كائنات فينا وتظهر أخرى: خلايا، بكتيريا، زواحف، حيوانات، بشر، تنقرض، وتظهر أخرى، وكل ذلك يحدث في لحظات وفينا.

لن تكون لحظاتُ التحوّلِ هامةً في قصتي. إنها تحدث هكذا: كلب في أحضان امرأة يتحول إلى رجل، إلى إنسان مثلنا، ثم إلى زوج لتلك المرأة، إلى رجل، ولكن ذلك لن يجعل من قصتي إلاّ خرافة عجائز مثيرة لشفقة وتعاطف الساذجين.

مابعد المسخ، قصتي، لن أتفنن كثيراً في لحظات التحوّل. سيتم بعد حضن ومداعبة من أنثى على سرير زوجي، بين كلبي أو بطلي وصاحبته الايطالية!

هل قلت الايطالية؟

نعم ذلك حسن جداً، المرأة ايطالية، أرملة ايطالية، قتل عريسها بعد شهر عسلها القصير في الحرب العالمية الثانية. قتله الليبيون بعد دخول الانجليز إلى طرابلس لتظل وحيدة، وتلقى معاملة طيبة من حكومة المملكة الليبية المتحدة، وتحافظ على بيتها ومزرعتها الواقعة في ضاحية طرابلس الجنوبية.

إنني أتقدم بشكل جيد، والقصة تتفتح.

الليبيون، وعلى ذكر الايطاليين، كانوا يعتقدون أن برّ (يم يم) أو (آكلة لحوم البشر) كان يقع في ايطاليا. هم لا يعرفون أين في ايطاليا؟ ولكن عجائزهم ظللن يرددن أن (يم يم) طليان، أما رجالهم فكانوا ورغم بؤسهم ونقص المياه والاستحمام بينهم، ورغم شقرة الطليانيات ونظافتهن اللامعة، ورغم وسامة الرجال الطليان، وشقرتهم، وقوة أجسادهم فإنهم كانوا يشيعون أن الطليان قوم تنقصهم النظافة. فهم لا يتوضأون كالمسلمين خمس مرات في اليوم، ولا يغتسلون كالمسلمين بعد ممارسة الجنس، والأهم أن روائح تشبه رائحة الكلاب تفوح منهم عند ممارسة الحب. بالطبع تلك حيلة ليبية ساذجة لا أساس من الصحة لها، وليست إلاّ محاولة للانتقام من مستعمريهم الطليان، والأهم، في زمن الاستعمار ذاك، كان بناء جدار عرقي بينهم وبين الطليان.

ربما ذاك التراث الدفاعي الليبي القديم لازال يعشش في رأسي مما جعل (الايطالية) تقفز إلى قصتي، أو بالأحرى أقذف بها وسط هذه التجربة، وقد تومئ هذه الايطالية، وتحويلها لكلب ليبي، إلى زوج ليبي لها، لذاك الحنق الليبي على من تجنّد وعمل مع الطليان، بردّه كلباً كما ينبغي له أن يكون (حسب الرأي الليبي السائد).

حسناً، ربما عليَّ أن أبدأ في قصتي بعد كل هذه المناورات التي كنت أحاول عبرها أن أجد القصة التي سأرويها، والتي كانت مجرد (أمثولة) في رأسي، لجأت إليها لأجد ما أكتب، لأنني لم أستطع الكتابة لسنوات طويلة عن أي شيء، لم أستطع أن أسرد قصة كاملة.

(الأمثولة) وقبل أن أبدأ، مفردةٌ غريبةٌ قفزت منذ السطور الأولى لهذا المشروع القصصي. أنا لا أعرف تحديداً لهذا المصطلح، ولا أذكر أني قرأته، أو سمعته، ولكنه يبدو مصطلحاً مألوفاً، ومعتاداً بالنسبة لي، اكرره الآن، ولم استخدمه من قبل حتى استخداماً عابراً، ولكنه يبدو واضحاً ومحدداً هكذا (أن أضرب مثلاً)، عبر حدوثة غريبة و لا معقولة. و أن تومئ تلك (الحدوثة) إلى حوادث واقعية وحقيقية دون أن تكون كذلك.

(الأمثولة) تتخذ لدى الليبيين شكل الحكاية أو المثل الشعبي. هي حدوثة أخلاقية وتربوية في الغالب، تصلح للأطفال، وتعجّ بالملائكة والشياطين والخير والشر والقدر. المهم أنها قصة لا معقولة، مؤلفة لجعل الواقع معقولاً ومنطقياً، حتى يبدو (هذا اللا واقع هو الواقع بعينه) كما يقول (إرنست فيشر) على ما أذكر.

في (الأمثولة) تنطق الطيور والذئاب والكلاب، ويصمت البشر مذهولين، وتعاشر الغزلان بشراً وتعشقهم، وتنطق الحمير غباءً لطيفاً بريئاً، وتخطف الضباع الجميلات حباً وولعاً، وتتزوج الجنّيات رجالاً. إنها إرث من المسخ والتحوّل، ومقاصدها دائماً الخير والحق والعدل.

إنها تعويذة نقرأها لتتحول الحياة إلى حياة أفضل رغم عذابات التحوّل.

ولكن التحوّل هنا سيكون مؤلماً، فلن يسعد الكلب بالمصير الإنساني الذي يداهمه، ويمسخه بشراً خاسئاً يسعى، كما قد نتوهم. سيعاني الكلب المصير الليبي المؤلم والمدمّر، ليظل حلم العودة إلى جنان وخصوبة وسعادة (الكلاب) لايغادر مخيّلته وأحلامه وسعيه المحموم نحو جنّتة وبراريه الرحبة.

في (الأعجوبة)، أو (الأمثولة) يفخُّ الشيطانُ بين ذكر وأنثى، ثم يتسلل إلى جسديهما ليرتكبا الخطيئة، ويطردا من الجنان والبراري. في القصص الديني يأخذ الشيطان هيئة أفعى، يتلوّى ويفحّ بينهما. أما في اللوحات الليبية لما قبل التاريخ وقبل الأديان السماوية، فلا أفعى. ثمة فقط أنثى تستلقي على ظهرها وينتصب أمامها رجل برأس وذيل كلب، يبدو الرجل كعمود من ريح، يتلوّى هائجاً عطشاً، بينما تستلقي الأنثى رائقة هادئة كبحيرة ماء وسط صحراء قاحلة. التحوّلُ، أو (المصير) يحلّ حين يغطس عمود الريح في بحيرة الأنثى الرائقة، لتموج تلك البحيرة وتتلوّى ألماً، يتلاشى عمود الريح فيها وينطفئ ويسكن الرمل قاع البحيرة، مؤذّناً ببداية التصحر والتّيه. يا للمفارقة التي أصل إليها على هذا النحو. «لخصب البشري والتزاوج ينجبان صحراء قاحلة وعطشاً»، ولكــن ألا يبدو «الحب ماء بحر كلما شربناه نزداد عطشا؟»

بهذا التصور تبدو القصة تائهةً، فها هي تعود لتلك الأسباب والنهايات كما في قصة (قرزة المسخوطة) حجراً، وبحيرات الاكاكوس المتحوّلة رملاً تذروه الريح والبشر الممسوخين حجراً ورملاً، وحتى في حمار سلفنا الصالح أبوليوس. أنا أريد لقصتي أن تسير عكس ذلك المسار.

لنتغاضى عن كل ما فات، ولنبتعد عن الحذلقة والتفلسف، ولنبدأ في الأفعال. فها هو بطلنا يلهث تائهاً بعد أن شمّ رائحة أنثى يعوي جسدها نداءات للتزاوج والتخصيب. كان يشمّ الرائحة قريبة وملحّة فيلهث، أمضى يومه الطويل يركض

مستنشقاً روائحها القريبة. صعد جبالاً، وهبط وديااناً، مبتعداً عن بيت ومزرعة صاحبه الذي ربّاه مربوطاً قرب زريبة نعاج بلا كبش، وقبالة حمار في الليل. فالحمار كان ينهق منذ الفجر ليفكّ رباطه ويُقاد ليقوم بأعمال لا يعرف بطلنا معناها ولا مغزاها، فيجرّ محراثاً أو يحمل أعباءً من قش أو يركبه الأطفال، وهو مستسلم صامت، لا ينطق إلاّ بنهقات معروفة وفي تواقيت ثابتة، ليعود مقاداً إلى مربطه عند المغرب، ينهق ثم ينام واقفاً.

كان الآدمي الصغير ابن صاحب بطلنا قد فكّ رباطه هذا الصباح ليلعب معه، لكن رائحة الأنثى جعلته ينطلق كالسهم ويغادر المربط والزريبة والمزرعة، غير عابيء بصراخ الولد. لم يفكر في شيء إلاّ في الوصول إليها. كانت تبدو قريبة وفي متناول الأنف. وها هو بعد يوم طويل من الركض يقترب منها، يجتاز سورها قفزاً ليجد نفسه وسط حديقة غَنّاء يتوسطها حوض مملوء بالماء الأزرق الصافي، يقفز وسطه ويسبح وينتعش، ثم ها هي امرأة تطل من شباك بالبيت، ثم تختفي لتظهر أمامه على حافة الحوض والماء وتناديه بيديها، تبدو فرحة به وكأنما كانت في انتظاره. يغادر الماء إليها وكأنما هو كلبها وهي صاحبته منذ زمن طويل، يقترب منها دونما خوف ولا تردد، وتمد يدها لتمسّد على رأسه وعنقه والماء يتقاطر من وبره الأبيض، يقفز على قائمتيه الخلفيتين وتلتف قائمتاه الأماميتان على خصرها، ويلعق لسانه عنقها الأملس الدافيء، وهي تضحك سعيدة بقدومه، وتشقشق فرحة «ليبيتشيو ميو». هو لا يعرف بماذا تشقشق، ولكنه سعيد بها وبالشقشقة. أنا أيضاً لا يمكنني ترجمة هذه الكلمة الايطالية بكلمة واحدة، ليبيتشيو تعني (الريح الليبي الحار والجاف)، هي تسمية هكذا (ليبيتشيو) رغم أن وبره يتقاطر ماءا على فستانها الخفيف ولسانه لعاباً على عنقها الأملس الدافيء.

كانت شقراء، ولاتشبه امرأة صاحبه، فهي أطول قامةً و بشرتها أكثر لمعاناً ولها رائحة تختلف عن نساء ورجال عرفهم في مزرعة صاحبه.

غسلته جيداً، ونشّفت وبره بمنشفة بيضاء، وسكبت له حليباً فشرب حتى ارتوى وشبّع، وأحسّ بألفة لم يشعر بها طوال عمره السابق في مربطه الضيق، ولم ير وبره لامعاً ونظيفاً كما هو الآن. إن هذه الأنثى البشرية ملاك حقيقي وهذه الحديقة جنّة صغيرة.

بَنتْ له في اليوم التالي بيتاً صغيراً، ودهنته باللون الأبيض، ودهنت بابه وشبّاكه باللون الأخضر.

كانت تترك بابه مفتوحاً ليكون حرّاً، يخرج منه ويعود إليه متى شاء، يتجول عبر الحديقة ويدخل بيتها الذي حفظ أركانه سريعاً، وتعلم أن يجلس على أريكتها ملاصقاً لها وهي تقرأ أو تستمع للراديو، أو يتبعها إلى المطبخ، بل وإلى غرفة نومها وسريرها حيث يقفز إلى جوارها ويلاعبها وهي تضحك سعيدة به، حتى تنام دون أن تطلب منه المغادرة إلى بيته بالحديقة، بل أنها كانت تحضنه في بعض المرات متمسكة ببقائه إلى جوارها وهي تنام وقائمته الأمامية اليمنى تمتد إلى ظهرها وتحضنها بينما تلقي هي بساقها الأيسر على خاصرته،كان ذلك الوضع مؤلماً له ويتمنى بعد طول احتمال أن تنقلب وتطلقه، ولكنها أحياناً تظل هكذا لوقت طويل مما يجعله يسحب جسده بصعوبة من مصيدتها ويعود إلى بيته بالحديقة.

تقوده كل مساء إلى شاطيء البحر، تتمشى وهو إلى جوارها أو يتبعها، تطلقه أحياناً ليركض بعيداً ثم يعود إليها، تأخذه إلى زيارات بعض أصدقائها وهم قليلون جداً.

كان يتحول إلى حارسها حين تخرج إلى شوارع ومحلات طرابلس، فقد كانت تضايقها كثيراً معاكسات وتحرشات المراهقين الذين يملأون الشوارع.

تعلم أن يخرج لوحده إلى محل البقالة القريب وسلة بعنقه، ليعود بها إلى البيت ممتلئة، ليجدها في انتظاره عند الباب، تحضنه ممتنة، وتقبّل رأسه وعنقه ويلحس خدها وعنقها وذراعها، فتضحك سعيدة راضية.

كان قد أصبح رفيقها الوحيد وصارت صاحبته وعالمه. كان يريد أن يكون كما تريد له أن يكون، فتعلم أن يقف على قائمتيه الخلفيتين وهو يراها تقبل نحوه، بل ويحاول أن يتقدم نحوها على قائمتيه الخلفيتين وقائمتاه الأماميتان مشرعتان ليعانقها، وكانت أحياناً تزحف نحوه على أربع مقلدة حركاته، بل وتخرج لسانها الصغير وكأنما تلهث، تضربه بيدها على راسه بخفة ليشتبك معها ويطرحها أرضاً، يلحس بلسانه حيثما أستطاع وهي تدفعه بعيداً ضاحكة، يعضّ ذراعها وعنقها بخفة فتغرس أظافرها في ظهره وتعوي ككلبة شرسة، ثم تعود للضحك وتتقلب تحته، فيطبق بفكّيه على عنقها ويخنقها وتتسع عيناها ناظرة في عينيه متحدية. كانت تعوي عبر عينيها، ويحسّ أنها تكاد أن تتحول إلى احدى بنات جنسه.

كان يناديها بعواء خافت أن أقفزي الحاجز وتعالي، وكانت تسمعه فتوشك أن تعوي وتقفز. كانت وهي تزحف على أربع ولسانها الصغير يتدلى ويقطر لعاباً، وثدياها يرتعشان بين قائمتيه الأماميتين متوردين شهيين توشك على القفز إلى عالمه تماماً.

كان يلعبان أحيانا هذه اللعبة، وكانت الأيام تمضي (كما في الأماثيل) هانئة رائقة في بيت الايطالية الأرملة وكلبها الليبي العجيب، الذي لاتعرف من أين جاء وكيف أحسّت، منذ الوهلة الأولى التي دخل فيها حديقتها، أنه كلبها الذي كانت في انتظاره منذ سنين. إنّه (ليبيتشيو) الذي رغم خوفها منه حين يعصف في الصيف، كانت بحاجة له في بيتها، علّها تروّضه وتمتص هيجانه وعنفه، ويجفف ويلهب عطن أيامها الراكد.

التحوّل

حسناً جداً، إن الأحداث تمضي سلسة ورائقة، إلى حد الآن، في هذه القصة أو الأمثولة. بطلنا سعيد بوضعه القصصي، وكذلك بطلتنا. هما منسجمان جداً، ويكبر تألفهما كل يوم أكثر. ولكنني أكتشفت أنني لا أجُرّه إلى مصيدة التحوّل التي يجب أن أوقعه فيها بشكل فعّال وسريع، بل وبعد قراءتي للصفحات السابقة أكتشفت أنني أوشكت أن أوقع الأرملة الايطالية في مصيدة التحوّل، كما لا ينبغي أن أفعل. فالتحوّل قدر بطلنا وليس بطلتنا. إن سَيرَ الأرملة على أربع ولهاثها وتكرار ذلك المشهد، كما أشرت، أوشك أن يقذف بها إلى التحوّل لتنقلب القصة رأساً على عقب. ولو حدث ذلك لعدنا إلى قصة أميرة تمسخ كلبة ولعاً وحباً بكلبها، وهي قصة مكررة لا أريد أن أكتبها ولا أن أسردها، ولكن أيضاً، وذلك كان عملاً صائباً جداً، ظهرت رغبة بطلنا في التحوّل، عبر الصفحات السابقة، واضحة. فهو يحاول أن ينتصب على قائمتيه الخلفيتين، وأن يحضنها كما يفعل البشر. وكان يضمّها في السرير كما يفعل ذكور البشر مع إناثهم. القصة التي أكتب ظلت، ورغم محاولاتي، تائهة إلى الآن، بل وصلت في بعض السطور إلى مفترق طرق خطير، أعني أن قابلية البطلين للتحوّل بدت متعادلة، وذلك أمر لا أريد أن يحدث.

الإرث الليبي من حكايات (بر الكلب)، و(نساء الاكاكوس)، وحتى تاريخ هيرودوت الليبي، وحمار أبوليوس الذهبي، واضحة وحاسمة. (التحوّل يصيب الذكر وتظل النساء نساءا). في هذه القصة، ثمة ذكر كلب وامرأة شقراء في الأربعين من عمرها، أرملة وحيدة، بحيرة رائقة، بينما بطل القصة وحين ينتصب على قائمتيه الخلفيتين يبدو كرجال لوحات الاكاكوس، برأس وذيل وهيئة كلب، عمود ريح يتلوّى مهتاجاً عطشاً أمام البحيرة الرائقة.

إذن، ليقفز بطلنا إلى سرير بطلتنا التي تنام الآن هادئة هانئة، يلتصق بها فتمد ذراعها وتحضنه. يغرق في نوم عميق بعد لحظات، ويطير به عطرها إلى سماوات بعيدة، وإلى براري ما عرفها من قبل. تمسك بذراعه وتطير به. تهاجمهما رياح (القبلي) الحارة، ويسمعها تغمغم «ليبيتشيو»، يتطاير وبره الأبيض بعد أن أتسخ بالتراب، ويدرك أنه صار كلباً املطا كآدمي تعرّى من ملابسه، وأن فكّيه يتراجعان إلى الخلف، وجمجته تكبر تحت ضغط فمها، وعظامه كلها تكاد تتهشم تحت مكابس المرأة التي تعصره بقوة، وهو معلق بين السماء والأرض، يحاول أن يفلت منها ويسقط، ولكنها تشدّه بقوة إليها، إلى أعلى.

وكموظف (كافكا) يُمضي بطلنا، إذن، ليلته تلك في أحلام تحوّلت إلى كوابيس، وحين يستيقظ في الصباح يجد نفسه في سريرها وحيداً، فيبدو أنها استيقظت مبكراً، وتركته لأحلامه وكوابيسه.

إذن وجد نفسه ملفوفاً بشرشف أزرق، حتى رأسه كان ملفوفاً تحت الشرشف، وكان، وعلى غير العادة، ينام على ظهره. كان يبدو أنه تغيّر تماماً. شكله يبدو أنه تغيّر كما حدث في كوابيس ليلته الماضية. تساقط وبره الأبيض، وغدا أملطاً كصاحبته التي نهضت مبكراً وتركته لكوابيسه. تحسّس جلده فوجده مسلوخاً تماماً، رطباً ولزجاً. تحّسس وجهه فوجد تضاريس أخرى غير التي كانت. أنفه تراجع إلى الخلف، وتقدمت جبهة كبيرة إلى مقدمة رأسه. فمه صار صغيراً، وأسنانه اصطفت بانتظام فم آدمي. فكر أنه لا زال يحلم، وأنه لم يستيقظ بعد، وأن ما أحسّه من جسده ليس إلاّ تذكّراً لكابوس لا زال يعيش ذكراه. تحسّس نفسه، مرة أخرى وأخرى، ولم يكن يحلم. أخرج رأسه بحذر من تحت الشرشف فواجهه رأس رجل في مرآة تقابل السرير، فعاد والتف تحت الشرشف من جديد، لايجرؤ على النظر إلى المرآة ورؤية ما رأى. لا أحلم، لا أحلم. إن تحوّلاً مرعباً أصابني، كان يردد داخله، نادباً حظه، وجسده الأملط. نهض حذراً، ورأى وبره يتناثر في السرير، وتساقط بعضه على السجادة. قفصه الصدري تراجع إلى الخلف وصار عريضاً، ثم وجهه، هاهو وجه رجل، لم يعرفه ولم يره في حياته، في المرآة التي يقف أمامها. يحرك رأسه فيتحرك رأس الرجل. يكشّر عن أنيابه فيبتسم له الرجل في المرآة ساخراً منه. أي لعبة يلعبها القدر معي؟ أي كائن املط أصبحت؟ وكيف سيكون بإمكاني أن اسعى هكذا على قائمتين فقط؟

أحسّ ببرودة تجتاح جسده فلفه بالشرشف. نظر إلى وبره المتناثر، حاول جمعه وإلصاقه بجسده من جديد دونما جدوى. أخذ يلف وسط الغرفة حول نفسه وهو على أربع، كان ذلك أمراً صعباً. فرح وهو يرى ذيله لايزال هناك في مكانه. صار قصيرا جداً، ولكنه لا يزال هناك. تحسسه بيده. نعم يدي. إنها مخلب بشري تماماً. إذن لم يتبق لي من شيء سوى ذيل صغير.

سمع المرأة تقبل من خارج الغرفة، فالتف بالشرشف، وانزلق تحت السرير، لا يريد أن تراه وهو على هذه الهيئة، أي غضب سيستبد بها وهي تجد رجلاً عارياً أملطاً بغرفة نومها. ستطرده وربما ستستدعي له جيرانها بصرخة أو صرختين. انكمش تحت السرير، ورأى قدميها وساقيها وهي تدخل وتلف باحثة عنه، ثم أخذت تناديه «ليبيتشيو»، ثم قالت وهي تضحك سعيدة «أين أنت أيها العريس؟». اكتشف أنه يفهم ما تقول، وأوشك أن يرد عليها، ولكنه ضبط نفسه، وأنكمش أكثر. سمعها تفتح الدولاب بحثاً عنه، ثم رأها مقابلة له تجثو على أربع وتنظر إليه تحت السرير: «أخرج هيا. هل تخجل مني؟ يالخجل العرسان. لا عليك يا حبيبي لقد كنت رائعاً. كانت ليلة ولا أجمل».

أي ليلة؟ هل تعني تلك الكوابيس وذلك العصر والتهشيم الذي عاناه طيلة ليلته الماضية؟ ثم ألا ترى ما أصابه من مسخ وتحول؟ هو الآن لم يعد كلبها الذي كان. إنه رجل. ستطرده حتماً حين تدرك ماحلّ به.

هيا إلى الحَمّام، قالت له، ونهضت ومضت وهي تناديه: هيا تعال إلى الحمّام أيها العريس.

تنهد ارتياحا لخروجها، وطمأنها أنه قادم، فردت عليه «لا تتأخر»، دون أن تلاحظ أنه يكلمها بلغة البشر. مضت إلى الحمّام، ثم سمع المياه تتدفق في حوض الحمّام. خرج من تحت السرير وانتصب عارياً. أحسّ بالبرد، فجذب الشرشف ولف نفسه به جيداً. قرر أن يهرب من البيت. سيقفز من الشباك ويمضي كأي بشري يسير، ولن يلاحظ أحد شيئاً.

ولكنه عارٍ! لن يكون بإمكانه أن يسير ملفوفاً بشرشف أزرق وسط الشوارع دون أن يلاحظ المارون ذلك.

قفز إلى السرير ولف نفسه جيداً بالشرشف الأرزق. سيتمترس هنا، مختبئاً عنها في السرير، لن تلاحظ تحوّله وهو ملفوف على سرير. ستحاول أن تسحب الشرشف، سيتمسك به بكل قواه، ستيأس وتتركه حتى يجد مخرجاً ويهرب.

سمعها تقترب وهي تغني سعيدة نشطة، ثم دخلت واقتربت منه، وصعدت وضمته إلى صدرها وهو ملفوف، وأخذت تحاول نزع الغطاء عنه، فتمسك بالغطاء أكثر، ولكنها لم تتركه بل نزعت الشرشف عنه بقوة، فأنكمش على نفسه كجرو خائف. ألصق ركبتيه بذقنه، وهرّب ذيله القصير بين ردفيه، لم تندهش ولم تصرخ حين رأته عارياً املطاً، بل غمرته بقبلاتها. كانت تقبّل كل جزء في جسده، وكانت يدها تداعب ذيله المتخفي هلعا. لم يستمر انكماشه وخجله منها طويلاً، تراخى جسده وتفتح كل ما فيه لقبلاتها ومداعباتها. كان دفء أنفاسها ويدها تمنحانه مايحتاج من دفء وبره الذي ضاع. غمرت وجهه بنهديها المكتنزين فمدّ ذراعيه وطوّقها. هو رجل وهي امرأة الآن. «تعال، اقفز الحاجز إليَّ» كان نداؤها يتردد داخله كما كان يفعل معها، أدرك أنها هي من حوّله إلى ما هو عليه الآن، وأن كوابيس ليلة البارحة كانت حقيقة ولم تكن أحلاماً ولا كوابيس، فاستسلم لها، وتركها تفعل به ماتشاء، كما ظلت تفعل به منذ أن قفز سور حديقتها.

أوقفته أمام المرآة، وأخذت تتأمل هيئته البشرية مندهشة ومسحورة، ثم فتحت خزانة ملابس وأخرجت منها (روب نوم) وألبسته إياه، فبدا رجلاً حقيقياً رغم ذيله القصير الذي رفع الروب من الخلف قليلاً. قادته من يده إلى الحمام. رأى الماء يتدفق في الحوض ساخناً يتصاعد بخاره، فخاف على جلده المملوط من الحرق. حاول الهروب مبتعداً، ولكنها رشته بالماء ضاحكة، فأرتبك ولم يستطع الهروب ولا المقاومة. دخل الحوض حذراً وهي تشجعه وتدفعه حتى غمره الماء تماماً. لم يتألم ولم يحس بحرق ولا إلتهاب في جلده المملوط، بل أن جسده تراخى وتفتح وكأنما تريد مسامه أن ترتوي من ذلك الدفء. طلته ثم نشفته، ثم عطّرته، ورأى نفسه آدمياً يستيقظ من نوم طويل ومن أحلام طويلة تخللتها كوابيس.

تبعها إلى المطبخ حذراً في خطواته فلا زال المشي منتصباً كالبشر، يصيبه بالدوار والخوف من التعثر والسقوط، فلم يكن بإمكانه أن يرى طريقه جيداً وهو منتصب على قائمتين كما كان يفعل وهو على أربع.

تناول فطوره بصعوبة بعد أن جعلته يحمل الطعام بيده إلى فمه، بدل أن يتناوله بالفم مباشرة. شرب القهوة بالحليب كآدمي يصحو، وأشعلت سيجارة ودخنتها دون أن تقدم له مثلها.

كان يستوعب دروس كيانه الجديد بسلاسة ويسر رغم بعض الصعوبات الصغيرة.

صارا يتحدثان ببساطة وسلاسة، لكأنه كان رجلها منذ سنوات طويلة، ولكأنه ابن نوعها حقاً منذ خلقه. لم تشر مرةً ولو بكلمة إلى تحوله، لكأن ما جرى لم يكن إلاّ حُلماً، بل أنها تحكي له حكايات وذكريات قديمة عاشاها معاً، لم تُشر إلى أنه كان كلباً، لكأنها تجهل ذلك تماما، ولكأنه لم يأتِ إليها من براري بعيدة، منذ فترة قريبة ولم يمضِ معها إلاّ بضعة شهور، قبل المسخ والتحوّل، كانت تمزج وهي تحدثه بين العربية والايطالية، وظلت تدعوه باسمه الذي همست له به حين استقبلته

أول لحظة (ليبيتشيو ميو)، هو يتذكر الاسم الذي كان يناديه به أصحابه الليبيون في مربطه القديم (سعيد). هو بالطبع لم يكن سعيداً هناك ولكن اسمه كان هكذا (سعيد).

تعلم أن يكبح رغبته في التبول على شجيرات الحديقة كما كان يفعل قبل المسخ، كان ذلك درساً مؤلماً أجبرته على حفظه وتطبيقه. التبول في الحمّام. كانت تنهره بقوة فينكمش خائفاً. تعوّد أن يذهب إلى الحمّام مرات عديدة وهو يتمشى في الحديقة. كان ذلك عملاً عبثياً ولا معنى له، كانت تستجيب لرغبته فقط أثناء الجماع، فتبرك على أربع كما يريد ويعتليها كما يفعل أي كلب مع كلبة، بل ويعضّ عنقها بقوة فتعوي ككلبة حقيقية، كان يحسها على سور جنسه. في تلك اللحظات تهز له ذيلها الخفي، تلك اللحظات فقط كانت تلتقيه على خط تماس بين جنسيهما!

قدمته لجيرانها ومعارفها من الليبيين والطليان على أنّه زوجها الجديد، وأنّه كان يعيش في ترهونة يعمل بالزراعة، وأنّه هجين لأب ليبي مجهول وأم ايطالية، وأن اسمه (سعيد). وتقبلوه دونما اعتراض ولا أسئلة، ثم بدأ يعمل بمزرعة صاحبته، يشرف على العمال الليبيين ويراقبهم ويبلغ السنيورة كما كانوا يسمونها بكل التفاصيل والأحداث.

كان عمل الحراسة والمراقبة قد أعجبه وأرتاح له. كان يطارد الأطفال واللصوص عند اقترابهم من حدود المزرعة ركضاً بل ويقفز على من يستطيع اللحاق به ويعضّه بعد أن يطرحه أرضاً حتى يسيل دمه. انتشر خبره بين جيران المزرعة وأسموه (كلب السنيورة) فضحك لذلك اللقب وتفانى في عمله أكثر.

أحب المزرعة أكثر من البيت، وكان يبقى أحياناً أسبوعاً كاملاً دون أن يعود للبيت ولها مما جعلها تأتي بنفسها لتعود به إلى بيتها والسرير.

كان بإمكانه في المزرعة أن يأكل كما يشاء، وأن يتبول كما يشاء وعلى كل اشجار وحدود المزرعة، بل ويعوي أحياناً مبتهجاً.

كان يتربص بالدجاج ليلاً، يهاجم القن ويصطاد واحدة ويهرب بها ممسكاً بعنقها بين فكّيه، يفترسها كما كان يفعل قبل التحوّل، وكان كل ذلك يشعره بسعادة كبيرة افتقدها منذ تحوّله .

مرةً، وحين اقترب من سور البيت عائداً من المزرعة، داهمته رائحة غريبة، رائحة عرق ذكر غريب بالداخل. قفز السور، ونزل على أربع، ثم قفز عبر شباك غرفة النوم ليجد رجلاً أسوداً، وحيداً، يصلح خزانة ملابس. انقضّ عليه، وطرحه أرضاً، وأخذ ينهشه ويعضّه. زحف الرجل وهو يصرخ خارج الغرفة، فتبعه على أربع دون أن يتوقف عن عضّه. تدخلت السنيورة محاولة إيقافه فأنقضّ عليها بدل الرجل. هرب الرجل ودمه يقطر. مزّق بأسنانه ملابسها مهتاجاً، وسال الدم من صدرها واكتافها وأردافها، ثم اغتصبها عنوةً، وهو يعوي ككلب مسعور.

شعر بخجل وندم كبيرين وهو يراها مرميةً على الأرض تقطر جراحها دماً. اقترب منها مُصدراً صوت ألم وأسف غريبين. أخذ يلعق جراحها بلسانه، ثم ألقى برأسه على صدرها باكياً، ولكنها أبعدته عنها بعنف، وصرخت فيه (كلب)

فبكى بصوت مسموع. مضت إلى الحمّام ممزّقة الثياب والجسد. كانت تبدو منكسرة، مهزومة، ورغم ذلك رأى أردافها كثمرة إجاص ضخمة ناضجة، تنضح بعصير أحمر شهي، وتهتز طلباً للقطاف. لم يحاول اللحاق بها ولا بثمرة الإجاص. مضى إلى غرفة صغيرة، ربما كانت مخصصة لأطفال لم يولدوا بعد، وأقفل على نفسه فيها. كانت خالية إلاّ من بعض الأشياء القديمة: خزانة ملابس صغيرة، بعض الأغطية، وبرواز صورة لرجل ايطالي معلقة على أحد جدرانها. كان الايطالي يعتمر قبعة ويحمل بندقية صيد ويقف إلى جواره كلب أسود. كان الايطالي ينظر إلى المصور وكان الكلب يرفع رأسه متطلعاً للرجل، لم يكن الايطالي سعيداً على ما يبدو. كان متجهماً وقاسياً، أما الكلب فكان ينظر إليه كما لو أنه يحاول التعرف عليه، أو على حالته في تلك اللحظات، أو الاستفسار منه عما يجري.

خلع قميصه المعفر بتراب المزرعة وألقى به فوق خزانة الملابس. أحسّ بألم في ذيله فنزع البنطال، واستلقى على بطنه وسط الغرفة، فانتصب ذيله متحرراً، وأحسّ بألمه يخف شيئاً فشيئا. كان الايطالي والكلب الأسود والبندقية يواجهونه تماماً. لاشك أنّه زوجها، ولاشك أن هذا الأسود كلب صيد، وربما كانت السنيورة من التقط لهما الصورة. إنهما بالمزرعة، نعم ربما كانا يطاردان لصوصاً ليبيين، والتقطت لهما تلك الصورة تخليداً لانتصارهما!

لو كان الايطالي على قيد الحياة لأطلق عليه النار، الآن، انتقاماً لها، ولنهش جثته هذا الأسود وقطّعه إرباً. ولكنهما مربوطان هناك في لحظة متجمدة، لا يذيب تجمّدها إلاّ صهد كابوس حار، ولا تفك رباطهما إلاّ أحلام السنيورة وغضبها لو شاءت.

ظل يستلقي على بطنه مخبئاً رأسه بين ذراعيه، كما يفعل أي آدمي مهموم وحزين، واسترخى ذيله الصغير حتى اختبأ بين ردفيه مستسلماً كأي كلب نالت منه هزيمة.

كان عليه ان يهرب إثر هذا الشعور بالهزيمة والعار. أن يقفز خارج البيت وخارج السور، ويعود إلى حيث كان، ولكن هل يستطيع؟ هل يستطيع العودة إلى حيث كان، وكيفما كان؟

«عليَ أن أنام. نعم أن أنام، وأن أحلم بكوابيس التحوّل كي أعود»، هذا ما كان يفكر فيه ويوده في تلك اللحظات. لو يستطيع الآن لفعل، ولكنه ظل ساهماً، مغمض العينين، وظل يشمّ رائحتها، وهي لابد تجلس على كنبتها. كان يشمّ رائحة عطرها، وعرقها، وحتى دمها وهو يتدفق في عروقها. كانت تلك العناصر ما يعرف منها أكثر من عناصرها الأخرى، لكأنها في فصل خصوبة كل الأيام، ألآدميات كما عرف بعد تحوّله ينثرن عطور التزاوج دونما توقف، لا فصول ولا مواسم تحكمهن، يرششن نداءاتهن الدائمة عطوراً. كان ذلك أمراً محيرّاً، ومرهقا له. فلا تخصيب يتم رغم كل ذلك اللهاث. يا للعبث والفراغ. ويا للألم الذي أوقعه فيه هذا التحوّل. عطرها، رائحة دمها الرائق، ثم الركض عبر مفازات من البراري إليها، إلى هذا المصير، هذا التحوّل.

ظل أسبوعا كاملاً، في تلك الغرفة، لايراها ولا تراه، فقط رائحتها التي لا تفارق أنفه وخلاياه، ظلت تتسرب مع الهواء، تغرقه وتربك كيانه الجديد.

كانت تفتح الباب كل صباح، من ذلك الأسبوع، وتضع له صينية بها قطعة لحم دجاج، وكأسين كبيرين، بأحدهما حليب، وبالآخر ماء. في اليومين الأولين كانت لاتدخل إلاّ يدها. تضع الأكل وتقفل الباب مسرعة، ثم دخلت في اليوم الثالث وألقت نظرة بأركان الغرفة بحثاً عنه. كان ينكمش على نفسه في خزانة الملابس الصغيرة متألماً. ظلت تقف عند الباب للحظات، كان يشمّ، ويسمع حضورها هناك قريبة منه، هي لاشك تعرف أنه يختبيء بخزانة الملابس الصغيرة، ولكنها لم تقترب منه أكثر من ذلك. تراجعت إلى الخلف، وأغلقت الباب، وظل ينتظر حتى تغلق الباب وتبتعد، ليخرج ويلتهم اللحم ويشرب.

كان يمضي أيامه في غرفة الأطفال الذين لم يولدوا، ناظراً إلى الحديقة والسور من الشباك، يرتدي ملابسه ويخلعها، يتبول بأركان الغرفة وعلى الخزانة، يسير على أربع ومنتصباً على قدميه الآدميتين. كان بإمكانه أن يقفز من الشباك ويمضي. لن يوقفه أحد، ولن يسأله أحد، فهو بالنسبة للجميع هناك بالخارج ليس إلاّ رجلاً يغادر بيته، ربما للعمل، أو للنزهة، أو حتى للهجرة، ذلك شأنه الذي لن يسأله عنه أحد. ولكنه لم يفعل، ظل ينكمش في غرفة أطفالها الذين لم يولدوا بعد، وكأنما في انتظار صفحها عنه، نعم ذاك ما يبدو. فهو ورغم خجله ورغبته في الهروب التي أحسّ بها في البداية، والتي خفتت شيئاً فشيئا، حتى أوشكت على التلاشي في داخله، لايزال ببيتها، ويشم رائحتها، والأهم يريد البقاء معها، هنا وبمزرعتها للحراسة والمراقبة.

أدرك أن الرجوع عن تحوّله لم يعد ممكناً، وأنه سيظل هكذا، على ماهو عليه، بهيئته الجديدة، ومعها حارساً وزوجاً لها.

كان يخرج، ليلاً، للحمّام ويغتسل، يطلي نفسه جيداً، ويعود إلى الغرفة متسللاً، يفعل ذلك كل ليلة بعد أن يتأكد أنها نامت. كانت رغبة الذهاب إليها، والقفز إلى سريرها، وأحتضانها، تستبد به، وتحرقه من الداخل. كان الحريق يكبر داخله ويجعله يتخبط على الأرض متألماً لبعدها عنه، حتى لم يعد يعي شيئاً، وزحف على أربع إلى غرفة نومها بعد سبعة أيام بلياليها أمضاها وحيداً في غرفة أطفال لم يولدوا بعد. فتح الباب وتسلل قرب السرير وتشممها عن قرب. كانت تنام رائقة على ظهرها، وكان شعرها الأشقر يتناثر على وسادتها، وكانت شفتاها تنفرجان عن ابتسامة. تجرّأ وقبّلها، فغمغمت كما ظلت تفعل «ليبيتشيو ميو»، فأدرك أنها صفحت عنه، وأنّدس في الفراش ملتصقاً بها.

استيقظ كرجل يصحو في غرفة نومه الزوجية. استحم، ومضى إلى المطبخ حيث وجدها تجلس في انتظاره لتناول الإفطار، ثم خرج إلى عمله بالمزرعة كما كان يفعل بعد أن قبّلها بخفة. كانت مبتهجة بعودته إليها، وكان يحسّ بأنه تحوّل أكثر مما كان عليه في أيامه الماضية. هو يدرك الآن تماماً أن تحوّله كان بها.

تفقد المزرعة وراقب حدودها جيداً. حذّر العمال الليبيين بالطرد لمن يتكاسل أو يتباطأ في عمله، بدا صارماً دون أن تظهر علامات شراسته السابقة، لم يكشّر كما كان يفعل، بل كان يلقي بأوامره وتحذيراته بصوت واثق وعميق.

بدأ يجلس على كرسي ويراقب كل شيء. لم يعد يلفُّ ويدور طوال الوقت كما كان. بدأ يتصرف كمشرف حقيقي وليس كحارس فقط، ثم أصبح المدير وصاحب القرار الحقيقي في المزرعة. كان يتصل بالمسؤولين الحكوميين ويسدد الضرائب، ويناقش المهندسين الزراعيين، وينهر العمال، بينما اكتفت السنيورة بالبقاء في البيت ولعب دور زوجته الجميلة المخلصة. كان يبذل جهداً كبيراً ليتخلص من كل عاداته القديمة، وأن ينسى التحوّل الذي أصابه، أن يكون رجلاً كما تريد له هي أن يكون.

تعرّف عن طريقها على رجال مهمّين في الحكومة، ولكنه ارتبط بعلاقة وطيدة وخاصة مع (الأفندي إسماعيل)، مدير البوليس بتاجوراء، حيث المزرعة. كانا يجلسان إلى نبيذ المزرعة ليلة كل أسبوع على الأقل، يتسامران ويحلمان. وعرف عبر صديقه أن البوليس يحرس البلاد والعباد، وأنّه يطارد ويعضّ من يحاول سرقة البلاد والعباد، وأنّه يمزّق إرباً العابثين المعتدين. ورأى بأم عينيه أعمال البوليس وهم يضربون ويعضّون الجُناة حين كان يصطحبه (الأفندي إسماعيل) إلى المركز أحياناً.

أعجبه البوليس وما يقوم به، وتمنّى لو كان منهم، ويقوم بما يقومون به، فأكد له صديقه (الأفندي إسماعيل) أنه منذ أن رأه رأى فيه بوليساً مخلصاً وناجحاً.

إن بطلنا يتهيأ ليكون بوليساً في هذه القصة، ولكني لن أدفع به إلى هناك، كما قد يفعل أي سارد عربي، أو حكّاء. سيكون ذلك مضحكاً وساذجاً، وسيجعل من (أمثولتي) عملاً مكرراً، ودعائياً فجّاً.

ولكنّه ظل يتردد على مركز البوليس للتسلية حتى دون أن يدعوه (الأفندي إسماعيل). كان يتحمس لأساليب صديقه وهو يحاصر المتهمين بأسئلته، وبعصاه الأنيقة الممتازة الصنع. كان يود لو أنّه يكمل كل ذلك التألق بالعضّ، ونهش أطراف المتهمين، وتمزيق ملابسهم.

إذن لن أسمح بأن يتحوّل بطلي إلى بوليس رغم مشاعره الفياضة تجاه مهنة البوليس.

ورغم بساطة ووضوح التضمين الذي سأودعه في سيرته اثر ذلك، وما سيلاقي ذلك من قبول لدى قرّاء يكرهون البوليس، وما يعود به عليَّ هذا التضمين من مديح، فإنني لن أفعل. لن أجعله بوليساً رغم رغبته الجامحة، فلو فعلت لن تكون هذه القصة إلاّ قصة ممنوعة رغم سذاجتها.

حسناً، لتستمر علاقته وثيقة بصديقه الأفندي إسماعيل، وليكن قريباً من البوليس، وليمضي إلى شوارع وسط المدينة في شهر يونيو عام 6791م، ويرى المتظاهرين من الطلبة وهم يهتفون بسقوط الملك والمملكة، وبحياة عبدالناصر، ويرى الأفندي إسماعيل بلباس الميدان معتمراً خوذة حرب، يتصدى للمتظاهرين، ويصرخ في بوليسه «اضرب!» لينهال البوليس على المتظاهرين بالعصي، ثم يأمرهم بالتراجع، ثم برمي قنابل الدخان، ولينهش لعنف المشهد وشراسته البشرية، ولينهش

أكثر لهيئة صديقه وكل رجال البوليس بخوذاتهم، وما أصاب أشكالهم، في تلك اللحظات، من تحوّل، لكأنهم كانوا يعيشون لحظات تحوّله ومسخه معكوسة.

في تلك اللحظات العجيبة بالنسبة له، أدرك أن البشر لا يتوقفون عن التحوّل، صعوداً وهبوطاً، لسلّم كائناتهم المتعددة الأشكال والطبائع. كانت أجساد المتظاهرين تخفّ، وترفّ أذرعها، وكأنما تستعد للطيران. وكانت أحذية البوليس وعصيّهم وخوذاتهم تثقل عليهم المطاردة لتلك الأجساد التي تحاول الطيران. كان يتذكّر، وهو يتابع مايجري مندهشاً، كيف كان يطارد الطيور قبل مسخه، ولايستطيع اللحاق والانقضاض إلاّ على من يتأخر عن الطيران ويتباطأ. كانت طرابلس، في تلك اللحظات، تشتعل وتتصاعد منها أدخنة الغاز. سالت دموعه إثر الدخّان، وأحسّ بعينيه تحترقان، فركض إلى نافورة الغزالة، وغمر رأسه بمياهها، ممسكاً بكتف الحسناء ورأس الغزالة كي لا يقع، ثم جلس على حافة حوض النافورة وقدماه منقوعتان في الحوض. تابع انهمار الماء على منحوتة الغزالة والحسناء. (لا شك أن الغزالة جاءت كما جاء من هناك، ثم تحوّلت إلى امرأة كما تحول إلى رجل، أم أن الحسناء تحوّلت إلى غزالة، وستفر إلى هناك؟) أصرّ، بعد حين، أن الغزالة مسخت آدمية كما حصل له، وكما يبدو أنّه يحصل لكل شيء هنا. فالمدينة التي ركض نحوها دون أن يعرفها تمسخ كل شيء إلى مسخ آدمي، ومضى ممتناً لكل ما رأى، وماعرف.

عاد إلى الدوران حول المزرعة من جديد بعد أن أهداه الأفندي إسماعيل عصا بوليس، وعاد للتبول على جذوع السرو الذي يحيط بالمزرعة، ويرسّم حدودها، ثم بدأ يقوم بجولة يومية حول (الحسناء والغزالة) وسط المدينة، كي يطمئن إلى الحسناء وهي تتسمّر تحت الماء، أيقونة للتحوّل الذي يطال كل شيء.

قال له الأفندي إسماعيل إنّه جاء، مثله، من تخوم الصحراء لاهثاً إلى المدينة، بعد أن ضرب الجفاف مراعي (سوف الجين)، وكل الوديان لسبع سنوات عجاف، وبعد أن نفقت الأغنام، وهَجَّ البشر، وهجّت الكلاب والذئاب نحو الشط طلباً للماء والكلأ، وأنضم إلى من سبقوه في أكواخ الصفيح الطرابلسية. كانت أكواخ الهجيج قد طوّقت طرابلس من كل اتجاه، لتبدأ لعبة تحوّلهم من فلاحين ورعاة إلى عمال ميناء، وحمّالين وكنّاسين، وإلى بوليس وعسكر. كان محظوظاً، حسب ما يقول، فلقد جنّده الطليان بوليساً، واستمر مع الإنجليز بوليساً، وترقّى في المملكة ضابطاً.

قال له الأفندي وهو يضحك «لن تصدق أن ما حوّلني تماماً كان زجاجة نبيذ أحمر ولم تكن امرأة، ولا لحم، ولا خبز، ولا أموال. كان النبيذ. فلقد عملت بمصنع عصير لدى ايطالي، ورغم التحذير والتهديد بالطرد لمن يسرق من العصير ويشرب، شربتُ زجاجة كاملة، وتحوّلت، وركلت الايطالي على مؤخرته الرطبة ليضربني البوليس، ويسجنوني شهراً كاملاً. هناك قررت أن أكون بوليساً يضرب ويحبس، وفعلت».

لم يكن الأفندي نادماً، ومتأسفاً لتحوله، بل كان يفاخر به.

إذن لم يتحول الافندي إسماعيل كما تحوّل هو. لم يقفز حاجز نوعه كما فعل هو. إنّه تحوّل عادي. تحوّل من مهنة إلى أخرى ليس إلاّ، أمّا تحوّله، مسخه، فرغم سلاسته إلاّ أنّه من أعمال القدر النادرة والقاسية. حوّلته امرأة شقراء، ايطالية، من كلب إلى آدمي غريب.

كان يعيش وسط عشرات المتحوّلين، كما الأفندي إسماعيل: حمّالون، وشحاذون، وبوليس، وعمال مصانع، ومزارعون في مزارع الطليان، كنّاسون وطبّاخون بمعسكرات الإنجليز والأمريكان، ولكنهم جميعاً ليسوا مثله. لا يشبه تحوّله إلا هذه الغزالة، أو هذه الآدمية الحسناء. لابد أن من صنع هذا التمثال كان شاهداً على ذلك التحول، أو ربما يكون هو من حوّل الغزالة التائهة العطشى إلى أنثى آدمية. نعم لابد أنّه هو.

كان ايطالياً، قال له الأفندي إسماعيل «من صنع هذا الصنم كان ايطالياً كافراً». هكذا إذن، كما فعلت به صاحبته السنيورة، ثم لابد أنه أدخلها حوض الماء ونقّعها كما فعلت به صاحبته. نعم إنه لا يزال يفتح (الدوش) عليها. فماء النافورة لايتوقف انهماره على جسد الغزالة الحسناء.

إذن ماذا لو فتحنا باباً جديداً لهذه القصة، وأخذنا من منحوتة الغزالة والحسناء التي تنتصب بميدان الغزالة، وسط طرابلس، نموذجاً آخر لهذا المسخ الليبي البديع، واختلقنا لهذه المنحوتة قصة، كما فعل رواة وعجائز ورفلة لمنحوتات (قرزة)، وجعلنا من (أمثولة) (بيجماليون) ونحّاتها دليلاً لمنحوتة الغزالة ونحّاتها الايطالي المهووس (بالأنسنة والغرور الآدمي)، وتحولت أنا من كاتب محلي، ذي جذور بدوية، مغمور إلى كاتب كوزموبوليتاني منفتح، وجعلنا من منحوتة الغزالة والحسناء (أيقونة للتغير الاجتماعي) كما يقول علماء الاجتماع؟

ولكنني أكتب عن المسخ وليس عن التحول الاجتماعي، ومنحوتة الغزالة والحسناء أقرب إلى بطلي (المسخ) رغم جمالها وتصوراتنا عن بشاعة (المسخ) منها لنظريات التغير الاجتماعي وكلام علمائها.

الغزالة ليست بالنسبة لي الآن إلاّ (أمثولة) أخرى، خرافة تمثال ينتصب وسط طرابلس، تحت مطر نافورة لايتوقف عن الانهمار على جسدين بديعين لغزالة وامرأة حسناء. ولكن...

لنتابع الغزالة وهي تركض، عبر صحراء، هاربة من وحش حديدي يطاردها حتى تصل إلى سهل جفارة حيث تجد نفسها وسط الخضرة والمزارع، ليتركها (الوحش) هناك ، ويمضي مبتعداً. هي اذ ذاك غرب طرابلس، جنوب (الزاوية)، وبالتحديد في مزرعة ايطالي كبيرة، تشمّ رائحة غزلان أخرى قريبة فتمضي نحوها، لتجدها وسط زريبة الغزلان سجينة بالزريبة كما كان بطلنا بزريبة في إحدى مزارع ترهونة، على هذا النحو لابد أن يفكّ أسر غزالتنا صبي، أو رجل، أو فليكن شاعراً. الشاعر لايرى الغزالة كائناً ابكماً، بل أميرة مسخوطة، وعليه أن يفكّ سحرها، ويعيدها إلى أصلها الإنساني الساحر والجميل، كما يتصور الجمال. فلقد بلغ الغرور بالنوع البشري أن يتصور الجمال على صورته فقط، لذا لا يحتمل بقاء كائن

جميل على طبيعته، بل يسعى بالسحر، وحتى بالأدب والفن لأنسنته، وتحويله إلى صورته البشرية. فليفتح الشاعر الزريبة، وليقترب منها ويداعب عنقها، ويهذي بشعر، أو بالأحرى بغمغمة لا تفهمها، لتقفز هاربة من الشاعر والزريبة والمزرعة.

كل ذلك تأليفا مقبولا وفق صياغة هذه القصة، أو (الأمثولة). إنني أقوم بمونتاج متوازٍ لسيرة بطلي وسيرة الغزالة، ولكنه يتطلب مزيداً من الأحداث، والركض نحو طرابلس وميدان الغزالة الذي لم يكن الا فضاءاً خالياً، أو اطلال مزرعة ليبية مهجورة وسط العاصمة، يخطط الايطاليون في عشرينيات القرن العشرين لتحويلها لحديقة طرابلس الكبيرة، والتي ستعرف بالخضراء وحديقة الجراند هوتيل (هذه الحديقة كانت أحد أبطال روايتي الصغيرة (العلكة) ولا أريد أن ألوك قصتها في قصة المسخ هذه من جديد).

إذن سأترك مسار الشاعر، وسأقترب أكثر من سرد (بيجماليون)، وليعثر النحّات الايطالي الطرابلسي على الغزالة في مزرعة صديقه الايطالي أيضاً، وليغرم بها حد الهوس والجنون، وليأخذها معه إلى بيته بحي الظهرة بطرابلس، ويشرع في النحت. هو ينحت الغزالة التي ورغم تسمّرها (كموديل) مدرّب، تلتفت إلى نحّاتها متسائلة باندهاش «ما الذي تفعله بي أيها الآدمي؟» وتبدو كما لو كانت تتأهب للهروب من مسخها الوشيك على يدي هذا الساحر الآدمي الأشقر.

يبدأ في تحسس تفاصيل جسدها بيديه الدافئتين الناعمتين. يمررهما عليه مرات عديدة، وهو مغمض العينين، ثم يشرع في الغمغمة والهذيان. كانت تتيبس. يجفّ جسدها، وتختنق داخل ذاك اليباس. كان يقيم حيّزاً ضيقاً من صلصال حول جسدها وروحها. كانت زريبة الآدمي الأشقر أضيق من الزريبة الأولى. إنها أشبه بما يقيمه البشر من زرائب مسقوفة، وبيوت يسجنون بها أجسادهم وأرواحهم هرباً من السماء والشمس والهواء والمطر. وأدركت أنّه يمسخها. يحوّلها إلى صنم من صلصال، دون أن تستطيع حراكاً. كانت يداه وأزميله تضيّقان عليها الدنيا. إنّه يشكّلها كما يناسبه. هكذا، أنثى آدمية من جسد وروح غزالة تائهة. كان جسدها يمسخ إلى جسد امرأة، بينما تظل روحها حبيسة الصلصال الذي يغلف الغزالة. كان الآدمي الاشقر قد تحوّل إلى تحسس جسد مسخها الآدمي، وتركها لعذاب قفص الصلصال الخانق.

كانت الحسناء، أيضاً، تتسمّر ناظرة بحسرة إلى صلصال الغزالة، وكانت عيناها لا تتوقفان عن ترديد «ما الذي تفعله بنا أيّها الآدمي؟».

كان النحّات الايطالي بغمغته السحرية التي لم يتوقف عنها منذ أن بدأ في النحت، أو (السخط)، أو (المسخ) لها قد حوّلها إلى أنثى آدمية، إلى حسناء تتسمّر ناظرة لجسدها الغزلاني الذي ظل أيضاً متسمّرا إلى جوارها. كان يريد أن يملك (الغزالة الطرابلسية) التي ظل يحلم بامتلاكها، وظل يتسمّر أمام تسمّرها، وظلت أحلامه تنهمر مع انهمار ماء النافورة على جسدها البديع، ليرى (الغزالة الطرابلسية) التي حوّلها خياله وأزميله إلى حسناء من حسناوات المتوسط، إلى أنثى غزالة، أنثى خرجت من زبد المتوسط، وغزالة جاءت من الصحراء الكبرى، وتلك هي طرابلس عبر تاريخها الطويل، واحة، أو حديقة تستحم فيها غزلان الصحراء الكبرى بمياه المتوسط، فتتحوّل الغزلان إلى حوريات، وتسترخي حوريات المتوسط على رمال شواطئها، وتحت شمسها اللاهبة ليتحولن إلى غزالات.

ذلك استنتاج جيد وقراءة معقولة لطرابلس، قادني لها تأليفي (الأليغوري) لقصة تمثال الغزالة والحسناء المنتصب وسط حديقة الخضراء، لما يقارب من القرن، أثناء كتابتي لهذه الأمثولة.

ولكن، وقبل أن أعود لمجرى أمثولتي القصصية، لابد أن أشير إلى أننا ظللنا، وكما فعل النحّات الايطالي، نحاول كل لحظة من تاريخنا أن نمسخ حورية المتوسط غزالة صحراوية، وأن نمسخ أيضاً غزالة الصحراء حورية بحر، دون أن نستطيع، وكما حدث للنحّات الايطالي، لم نستطع أن نذيب روح الغزالة في جسد الحسناء، ولا روح الحسناء في جسد الغزالة. ظللنا هكذا، وظلت طرابلس هكذا، أيضاً، منذ الفنيقين والرومان، وحتى الترك والطليان، ثم الإنجليز والمملكة السنوسية والجمهورية والجماهيرية، إلى أيام قليلة مضت من كتابتي لهذه السطور، حيث انتهت على ما يبدو حكاية الحسناء والغزالة الطرابلسية. فلقد اقتلع بعض ثوار فبراير المتشددون التمثال من جذوره ولا أحد يعرف أين ألقوا به، ربما إلى العدم، أو ربما حرروا الغزالة من سحر الطليان، كما فعل كاهن ازوريس ببطل (الحمار الذهبي)، وأطلقوا الغزالة إلى صحرائها، وهدوا الحسناء إلى طريق التوبة والحجاب، ربما تكون واحدة من قطيع الغزلان المجلبب بالسواد، الذي يعبر بالقرب من مقهى (البرلمان) الذي أجلس به الآن، حيث تقابلني بالضبط قاعدة تمثال الحسناء والغزالة الذي اختفى في ليلة غاب فيها القمر وانقطعت الكهرباء، وارتدت الحسناء الطرابلسية جلبابها الأسود.

اذن انهيت حكاية تمثال الغزالة كما لاينبغي لي أن أفعل لو كنت راوي (أماثيل) حقيقياً، فلقد كان عليَّ أن أطيلها أكثر، وأن أمنح جسدها السردي استدارات وانحناءات، وتنهّد وبروز، وضمور الجسد الروائي العامر والمكتنز بالأحداث والمواقف والاحاسيس والعواطف، ولكنني أريد العودة إلى الكلب/الرجل، أو مسخ أمثولتي الأساسي. ربما اقتلاع تمثال الغزالة والحسناء، الذي تمّ في ليلة دامسة، وخوفي من عواقب الحديث عنه، جعلني اختصر الأمثولة. لابأس إذن. المهم أنني كتبتها كأمثولة قبل أن أنساها وينساها الجميع.

كان تمثال الغزالة والحسناء قد تحوّل عند بطلنا إلى تاريخ خاص به. تاريخ كتبه ايطالي اشقر. سيرة تحوّل مرعب رغم جماله الظاهر. ربما ليس تاريخاً بالمعنى المعروف للتاريخ. فلا أحداث تروى، ولا وقائع قد وقعت، فقط لحظة تحوّل ومسخ من كائن إلى كائن آخر، من نوع إلى نوع جديد، من غزالة إلى آدمية حسناء.

كانت الغزالة المتحوّلة قد تحوّلت إلى محجّه اليومي. يأتي إليها قبل أن يعود إلى البيت وصاحبته الشقراء. يتألم وهو يسمع أناّتها المدفونة تحت الصلصال اليابس لينسى تلك الأنّات حالما يدخل البيت وتقابله السنيورة بابتسامتها الناصعة البياض، وشقشقتها العربية الايطالية الساحرة. كان سحرها قادراً دائماً على جعله ينعم بجنان التحوّل. كانت ملاكه الحارس، وهاديه إلى لذائذ حياة البشر، ونسيان ما قبل التحوّل.

جحيم التحول

كان بطل هذه الأمثولة قد عرف أن الكثير من الكلاب وصلت طرابلس هاجّة من الجوع والعطش بالصحراء. هي لم تهج كما هجّ. لقد اختاره القدر كما كان يرى، بينما كان هجيجها كأي هجيج عرفته الصحراء من قبل. هو قفز حاجز الزريبة، وسور المزرعة بحثاً عن ملاكه الاشقر الذي كان يسمع نداءه، ونداء التحوّل. أما هي فطاردها الجوع والعطش حتى شوارع المدينة، ومكبّات زبالتها. كان يراها وهي تتجول آخر الليل، وبوليس البلدية يطاردها بالنهار، ولكنه لم يقترب منها، ولم يحاول حتى التفكير فيها، بل نسي أو تناسى أنّه كان من جنسها، مما جعله ينظر إليها كما ينظر آدمي لكلاب ضالة تستحق القتل، لما تسبّبه من مشاكل، وما تثيره من رعب بين السكان.

ذلك التجاهل انتهى إثر ازدياد أعدادها، وإثر حملة القتل ضدها التي بدأت تخوضها بلدية طرابلس. كانوا يطاردونها ليلاً، وكانت أصوات الرصاص تسمع في غالبية أطراف المدينة، وخاصة في أحزمة الصفيح التي يقطنها الهجيج. وكان عواؤها يسمع ليلاً في تلك الأطراف، وكانت جثث ضحاياها ترى مرمية بالقمامة قبل أن يجمعها عمال البلدية للحرق. إثر كل ذلك، بدأت مخاوف بطلنا تكبر، وبدأ حذراً في كل حركاته، وربط ذيله الصغير بحزام خبأه تحت بنطاله، وتوقف عن مطاردة لصوص المزرعة والتكشير فيهم، وعضّ من يمسك به منهم، وأكثر ما أخافه كلام السنيورة عنها، وانزعاجها من رؤية أيّاً منها بالشوارع. كانت تلعن تلك الكلاب التي تشوّه منظر المدينة، وتقلب براميل الزبالة، وتخيف الأطفال، وتهاجم المارّة ليلاً. هي لم تشر له بشيء، ولكنه أحسّ بأنها قد تنقلب ضده إثر ما يجري، وتتذكر أنه كلبها الذي تحوّل، وأن ذيله الذي ظلت تداعبه باصابعها، وتضغط عليه حين يقبّلها هو ذيل كلب، ودليل على أنّه، ورغم كل التحوّل الذي أصابه، لا يزال كلباً.

كانت كوابيس وأحلام جديدة قد بدأت تهاجمه وهو ينام، ثم ازدادت جرأتها لتهاجمه وهو يجلس بالبيت، أو بالمزرعة، أو وهو يسير بالشارع. كوابيس يهاجمه بها الآدميون، والكلاب. يطلقون عليه النار، فيهرب لاهثاً ودماؤه تقطر. تنهشه أنيابهم الحادة فيسقط متخبطاً في الدماء. كانت بندقية الايطالي قد خرجت من الصورة المعلقة بغرفة الأطفال الذين لم يولدوا بعد، وأخذت تطارده خارج البيت. وكان الكلب الأسود قد انطلق بعد رصاص البندقية خلفه لينهش لحمه. كان يهرب من سرير وحضن السنيورة ليلاً إلى بيت الكلب الذي بنته له قبل التحوّل، لينكمش فيه على نفسه، ويحاول أن ينام ككلب يخاف البشر، وكآدمي يخاف الكلاب.

كانت الكلاب الضالة تحاصر بيته الصغير كل كابوس، وتخرجه منه عنوة. كانت تعامله ككلب منها رغم هيئته الآدمية. تحيط به وتلف حوله مدومة وهي تعوي. كانت تقيم طقوس الاستعداد للحرب على جنسه الآخر، جنسه الآدمي. فلم تكن تراه آدمياً، رغم كل ما ألم به من مسخ وتحوّل. كان زعيمها الأسود ينزله على الأرض ليبرك ويقعي على

ذيله الصغير كأي كلب مذنب مكلل بالعار، حتى يعوي مثلهم مهتاجاً، لينطلقوا، وهو معهم، يركض على أربع لايعرف إلى أين.

قرب البحر، وسط غابة السرو المظلمة يتوقفون. يقتربون منه، واحداً إثر الآخر، يتشممونه، يلعقون عنقه بألسنتهم، ثم يناديه زعيمهم باسمه القديم «سعيد» ليتبعه إلى معرض لجثث كلاب ميتة، مقتولة بالرصاص، وكانت عيونها، رغم الموت، تقدح غضباً. كانت خيوط الفجر الأولى تلمع في تلك العيون الميتة بروقاً غاضبة، «سيحرقونها في الصباح» قال له الزعيم الأسود. وفعلاً، شاهد رجال البلدية وهم يرشّون تلك الجثث بالبنزين، ثم يشعلون فيها النيران.

كانت الكلاب قد هجت هجيجها الثاني إلى هذه الغابة، قرب البحر، هرباً من القتل، وتركت المدينة لتقيم حزام هجيج آخر حول العاصمة. كان على تلك الكلاب التي نست الصيد ومطاردة الفرائس، ولم يعرف بعضها إلاّ البحث عن اللقمة وسط زبالة المدينة، كان عليها أن تعود، أن تتحول إلى ما كان عليه أسلافها. لن يكون ذلك مستحيلاً بالنسبة لها، فتحوّلها لم يكن كمسخه. إن قوائمها وانيابها، وسرعة ركضها، تجعلها قادرة على العودة. إن الطيور، والأرانب، والثعالب، وحتى الذئاب، موجودة بهذه الغابة التي زرعها الطليان كحزام يقي طرابلس من صهد وغبار رياح (القبلي) من (ليبيتشيو)، كما يسمي الطليان ذلك الريح الحارق، والذي اختارته له السنيورة كاسم تحبه به.

حزام الطليان الأخضر هذا لا يحمي طرابلس من رمال وصهد الليبيتشيو فقط، إنه يحجز ،الآن، بعيداً عنها حتى الكلاب والذئاب والثعالب، أمّا بالنسبة له فان حزام الطليان الأخضر هذا ليس إلاّ برزخاً بين (سعيد) و(ليبيتشيو)، بين الزريبة والمربط وسرير السنيورة.

كانت الكلاب ورغم حملات القتل والمطاردة لها قد ظلت تتسلل إلى أطراف المدينة، حيث تتكدس عشش وأكواخ المتحوّلين من البدو والفلاحين، وكان، ورغم هيئته الآدمية، يتسلل معها، ويتجول خفية بين تلك العشش والأكواخ، دون أن يلفت نظر سكانها وهم يطاردون الكلاب بعيداً عن زرائبهم. كانت الكلاب تراه كلباً، وكان البشر يرونه آدمياً.

منحته جولات الكلاب وسط أحزمة الهجيج الثقة في مسخه، وتخفّيه الآدمي المتقن، فتمادى أكثر. صار يذهب وحيداً ليتجول وسط متحوّلي طرابلس، بين عششهم وأكواخهم. كان الأطفال، والنساء، والرجال، يشبهون تماماً من عرفهم من البشر قبل مسخه، قدموا جميعاً مثلما قدم إلى طرابلس من تلك المزارع والوديان والمراعي، وتحولوا من فلاحين ورعاة إلى ما هم عليه بهذه العشش والأكواخ. هو بينهم كما هو بين الكلاب. يشبههم ولا ينتمي إليهم. هو آدمي مثلهم، هكذا يبدو لهم، ولكنه كلب بالنسبة للكلاب. إنّه يعيش حالة الغزالة والحسناء. يبدو أن الايطالي الأشقر الذي مسخ الغزالة إلى حسناء أراد لغزالته ولحسنائه أيضاً أن تظلا معلقتين هكذا، تسعى كل واحدة منهما في البرزخ الذي يسعى فيه الآن، أمّا ملاكه (السنيورة) فقد أرادت له أن يكون آدميا، رجلاً كاملاً، ولاشيء غير ذلك. أرادت أن يكون المسخ كاملاً، لا برزخ فيه، ولكنه، أيضاً، وكما الغزالة والحسناء، ظل كلباً، وآدمياً، لم يتحوّل كما توهّم إلى آدمي كامل، ولا عاد كلباً كاملاً كما

كان. لا فرق بينه وبين تمثال الحسناء والغزالة وسط هذا البرزخ الطرابلسي المريع. لقد كان الايطالي عبقرياً، وهو ينحت حكاية طرابلس. حكاية هذا البرزخ بين الغزالة والحسناء. بين الصحراء والمتوسط. فرن التحوّل الذي يسمّونه طرابلس.

رغم كل شيء، ورغم كوابيس الكلاب الضالة التي تحاصره بعوائها، إلاّ أنّه ظل آدميا كحورية طرابلس، أو حسنائها، ورغم هيئته الآدمية وسحر ملاكه (السنيورة) فإن عواء الكلاب يقوده إلى غابة الكلاب. تعرّف على المتحوّلين الآدميين وسط عشش وأكواخ الهجيج، وتعرّف إلى الكلاب الضالة ومحنتها، وهجيجها الثاني.

كان المتحولون الآدميون قد جاؤوا، كما عرف، من كل بقاع ووديان وشعاب البلاد، بحثاً عن الخبز والماء. كان عليهم جميعاً أن يتحوّلوا من رعاة وفلاحين إلى عمال وبوليس وعسكر. كان تحوّلهم بطيئاً وشاقاً، فكان على الواحد منهم أن ينسى كل ماتعلّم هناك بدياره القديمة، وأن يبدأ من جديد. كان الرجل منهم، ورغم ما تعلمه طوال عمره من رعي وحرث وحصاد، يجد نفسه هنا لا يعرف شيئاً، وعليه أن يتعلم من جديد، أن يبدأ كطفل يتعلم المشي عبر هذه الشوارع والازقة والمتاهات. كانت نساؤهم وكان أطفالهم يتكدسون وسط هذه العشش والأكواخ الضيقة القذرة، ينتظرون عودة الآباء بالخبز.

بعض النساء كن يخرجن مع الرجال فجراً إلى العمل كنظافات بالبيوت والدوائر الحكومية، ولا يعدن إلاّ ليلاً. كان بعض الأطفال يمضون أيامهم بلا أم أو أب. بعضهم لا يرى الأب ولا الأم إلاّ نادراً، لذا تجدهم يهيمون وسط تلك العشش والأكواخ مثل جراء ضالة، وما أن يكبروا قليلاً حتى يبدأوا في التسكع وسط شوارع المدينة ليصلوا إلى الأحياء الأرقى، تلك التي يسكنها الطليان والأغنياء ورجال الدولة. كانوا يقلبون براميل القمامة بحثاً عن أي شيء قد يؤكل، أو يباع. كانت السنيورة تسميهم أيضاً بالكلاب، رغم هيأتهم الآدمية، وكانت أحياناً تلقي لهم ببعض الطعام والملابس القديمة.

سالمة كانت إحدى النساء اللاتي يخرجن من أكواخهن عند الفجر لتعود ليلاً. كانت أماً لطفلين: ولد وبنت. كان زوجها قد رحل منذ سنوات وتركها وطفليها. كان قد تعرّف عليها في بيته (بيت السنيورة)، وبدا له، منذ الوهلة الأولى، انّه يعرفها، وأنها ربما تكون من هجيج (ترهونة)، التي جاء منها إلى مصيره الطرابلسي هذا. كان قد رأها قبل مسخه وتحوّله. كانت رائحتها إذ ذاك قد أخافته لشبهها حتى التطابق مع رائحة زوجة صاحبه الذي فرّ من مزرعته بحثاً عن ملاكه وتحوّله. كان عرقها، وهي تنظف البيت، ينشر رائحة أعشاب، وثمار وديان، خبرها أنفه، وكانت رائحة الحليب تفوح منها نفّاذة، تذكّره بروائح أطفال الآدميين في تلك البراري. كانت سمراء كخبز شعير مخلوط بالقمح نضج على نار هادئة. كان يعرف طعم ذلك الخبز. بالطبع لم يكن طعاماً مفضلاً بالنسبة له قبل المسخ. الآن، وهو ببرزخ طرابلس، بين الكلب والآدمي، فإن روائحها وطعمها تسيل لعابه، ويود لو يستطيع أن يتشمم تلك البراري والوديان والخبز والحليب فيها، ولكنها لاتكلم أحداً، حتى بعد مسخه ووجوده في البيت، كزوج للسنيوره، لم تكلمه، ولم تلتفت إليه، رغم تتبعه لرائحتها عبر البيت، واقترابه منها بحذر، كانت تنهي عملها وتمضي لا تكلم أحداً.

وجدها بين المتحوّلين في أحد الأكواخ، حيّته مندهشة لوجوده هناك، ثم أرته كوخها، وجعلت طفليها يصافحانه، بل وناولته رغيف خبز شعير مخلوط بالقمح أخرجته من تنورها للتو. أخبرته أنها هجّت حقاً من ترهونة، من وادي ترغلات إلى وادي كعام، ثم وصلت بعد رحلة طويلة إلى طرابلس. كان زوجها قد غادرها قبل هجيجها وكانت تريد اللحاق به، دون أن تجده حتى في طرابلس. البعض قال لها إنّه رحل إلى بنغازي. والبعض قال لها إنّه مات. قالت له «هو في كل الأحوال ميت، وأنا وحيدة وسط هذا الفرن، تتناهشني الكلاب والآدميون». كانت قد تحوّلت من الرعي وحلب الأغنام بوديان ترهونة إلى تنظيف بيوت طرابلس. جاءت بحثاً عن زوج ضال فلم تجده بين الضالين فضلّت. ربما تكون غزالة مسخت أنثى آدمية، قال «ربما» ومضى مبتعداً عنها يتصاعد بداخله عواء الكلاب الضالة التي كانت تنتظر الليل لتنزل من الحزام الأخضر غرب وجنوب طرابلس.

كانت الكلاب تتجمع وكان زعيمها الأسود يواصل العواء فيها. لم يكن يعوي بشراسة. كان عواؤه عميقاً ورصيناً. كان يحذّرهم من البوليس والبنادق، ثم طلب منهم أن يختفوا عن أنظار البوليس وسط عشش وزرائب المتحوّلين، فلن يستطيع البوليس مطاردتهم هناك وسط تلك المتاهات. كان عليهم أن يقوموا بغارات ليلية على أحياء المدينة الراقية حيث تتكدس بقمامتها الموائد الأفضل.

كان الزعيم، وحسب ما قال له مرّةً، ينوي أن يبتعدوا عن المدينة تماماً، بل وأن يعودوا إلى البراري والوديان، ليعيشوا كما تعيش الكلاب الحرّة، بعد أن يعودوا إلى طبيعتهم البرّية التي مسختها الأزقة، ومكبّات الزبالة، وحتى البيوت الآدمية والمزارع التي تربّى غالبهم بها إلى كلاب لاتعرف من حياة الكلاب غير العواء.

كانوا لا زالوا بحاجة لطرابلس، وبحاجة لمكبّات قمامتها، حتى يشتد عودهم ويستعيدوا طبيعتهم الأولى، تلك التي ورثوها عن أسلافهم الأحرار كما يسمّونهم.

ربما بدا الحلم مستحيل التحقيق بالنسبة لبعضهم، ففر منهم من كانوا يعيشون مستأنسين ببيوت الآدميين. كان أحدهم ورغم بنيته القوية وقوائمه الطويلة وفكّيه القوين قد عوى في وجه الزعيم أن لا، وأننا لم نعد كأسلافنا ولا نعرف البراري ولا الوديان، وستأكلنا الذئاب هناك بدل أن نأكلها. وأنطلق عائداً إلى بيته الصغير بحديقة أحد البيوت، ثم تبعه آخرون. الزعيم صمت لفترة طويلة، ثم نطق «ما هؤلاء بكلاب. لقد مسخوا، تحوّلوا إلى أنصاف آدميين. لو واصلنا البقاء في هذا الجحيم الآدمي فسيتم مسخنا جميعاً، وسنتحول إلى انتظار اللقمة بدل الصيد والافتراس، وربما إلى المشي على قائمتين وإلى نسيان التزاوج، ثم الانقراض». كان الزعيم يعي ويخاف مصير المسخ الكامل الذي أصابه إذن. ربما هو بالنسبة له أول نماذج الانقراض الكامل والوشيك.

إن الفرق بينه وبين هذه الكلاب كبير، بالضبط كما هو بينه وبين سكان العشش والزرائب من المتحوّلين. هو حالة مختلفة ونادرة. هو ضربة قدر لا علاقة لها بطرابلس، ولا بفرن التحوّل كما يسميها، هذا ما ظل يراه ويشعر به، ولكن كيف

يكون ذلك وهو لا زال يركض وسط الكلاب على أربع ليلاً، ويعوي معهم حين يعوون، والأهم يتكلم معهم ويفهمونه ويفهمهم، ويدخل مضاربهم ويخرج منها كواحد منهم.

كيف يبقى بهيئته الآدمية بينهم، ولا يرونه إلاّ كلباً كاملاً؟

هل يتحوّل أو بالأحرى يعود إلى هيئته الأولى حين ينضم إليهم، ويعوي معهم، ويركض على أربع وسطهم؟ هو لا يرى إلا هيئته الآدمية في كل الأوقات، كيف إذن يقبلونه؟ ألا يرونه مسخاً بينهم؟

كان بقاؤه بينهم وبين المتحوّلين قد بدأ يطول، وكانت السنيورة قد لاحظت أنه يغيب عن البيت كثيراً، وكذلك عن المزرعة، وأنّه لم يعد يهتم بها كما كان.

السنيورة قالت له «ما بك؟» وهي تجلس ملتصقة به على كنبتها، فنظر إليها خائفاً ثم متضرعاً، وألقى برأسه على صدرها، وصدرت من داخله أنّات ألم عميق. كان يعيش كوابيسه طوال أيامه الأخيرة، وكانت السنيورة قد بدأت تحسّ ما يعانيه من كوابيس، فمنعته من الخروج إلى المزرعة، وأبقته في البيت معها. كان يصحو في الصباح الباكر ليغطس في حوض السباحة كما فعل وهو يدخل حديقتها لأول مرّةً، ثم تراقبه من الشباك وهو يسبح لتنزل وتناديه بيديها، فيقبل نحوها منتصباً، كأول مرة، وجسده يقطر بالماء. يعانقها، وتضمّه طويلاً، ثم تأخذه من يده إلى داخل البيت.

ظلت تفعل معه مافعلت أول يوم وصل فيه إلى بيتها، ليرى نفس كابوسه الأول ومسخه، ولينهض في الصباح ويتذكر ذلك الكابوس، وليقف أمام المرآة بعد أن يتذكر وبره المتناثر على السجادة، ويرى الآدمي الذي رأه أول يوم في المرآة، لتقوده بعدها إلى الحمّام والماء الساخن.

كان وطوال أيامه الماضية قد نسي تماماً تلك الكوابيس والأحداث، وأنطلق كأي رجل يغادر بيته إلى العمل ويعود إليه، كل ذلك كان قبل أن يكتشف تمثال الغزالة والحسناء.

اكتشاف الغزالة والحسناء أيقظ في داخله ذلك الفزع. فزع ما قبل المسخ. آلام التحوّل التي تعصر روح الغزالة وجسد الحسناء، تلك التي عاناها ليلة مسخه بين ذراعيّ وفخذيّ وساقيّ وشفتيّ ملاكه الآدمي الجبار. كانت السنيورة قد قرأت له، مرّةً، فقرة من كتاب عن الجحيم. كانت تروي قصة تحوّله ومسخه دون أن تدرك ذلك. كانت فقط تريد أن تربّيه كآدمي منضبط لأن الجحيم مصير غير المنضبطين، القلقين ودائمي التحوّل والانمساخ. لم يكن جحيم الآدمي القلق، كما تقول تلك الفقرة، إلا ماكينة صغيرة، مكبساً صلباً له فم أفعى يبتلع الآدمي القلق، يعصره ويفرمه، ثم يلقي بفتات لحمه وسط قصعة ضيقة، تتقاتل النتف، ويبتلع بعضها بعضاً، يتشكل منها جسد آدمي يزحف خارج القصعة نحو فم الأفعى ليبتلعه من جديد، هكذا دونما توقف، وإلى ما لا نهاية.

(المالانهاية) و (الدوام) والتكرار، العصر والكبس والفرم والعودة من جديد، ليس لعام أو لقرن أو لآلفية من القرون، بل هكذا دائماً، وبلا نهاية. (المالانهاية) هي الفزع والرعب الذي ألقته في رأسه تلك الفقرة.

كانت السنيورة، ومنذ أن سألته «ما بك؟» وألقى برأسه على صدرها، قد شرعت تمارس معه لعبة الجحيم تلك. تجعله يقفز إلى حوض سباحتها، ثم تستقبله كما فعلت معه أول مرة، ثم تفتح فم الافعى وتبتلعه، تعصره وتلقي به نتفاً، وبراً أبيضاً على السرير، كل ذلك وهي تغني أغنيتها الأولى، وتقوده من يده إلى الحمّام الساخن خائفاً من احتراق جسده الأملط وذوبانه في الماء الساخن، ثم انحداره المرعب عبر المجارير المظلمة.

أما أنا، مؤلف هذه (الأليغوريا)، فإنني أقع في تناقض واضح مع الموروث الذي اتّكأت عليه في تأليفي السابق، أعني رجال الاكاكوس الكلاب، وبلاد (بر الكلب)، ورواية أمي، وحتى كتاب هيرودوت الليبي، و(حمار أبوليوس الذهبي)، حيث قفزت إلى الاستنتاج أن المسخ والتحوّل يصيب الرجال فقط، بينما تظل النساء نساءاً. ولكن مساخيط (قرزة) ليسوا رجالاً فقط، فالسخط أصاب الجميع: رجالاً ونساءاً وحتى حيوانات ونباتات وأشجاراً. والأهمّ، الآن، وأنا لا أتوقف عن العودة إلى الغزالة والحسناء، بعد كل فقرة، نسيتُ أن الغزالة أنثى، وأن المسخ أصابها مثلما أصاب بطلي، وحوّلها إلى كائن آدمي.

إذن، ومع تقدمي في هذا السرد (الأمثولي)، اكتشف أن المسخ يصيب الإناث أيضاً. والغزالة ومسخها (أمثولة) ممتازة لمسخ الإناث. وأتذكر (مسخ كائنات اوفيد)، ونواح الحوريات على ما جرى في ليبيا. ولكن، وعلى أية حال، فإن غالبية التحوّل الليبي يطال الرجال أكثر من النساء، بل أن (مسخ اوفيد)، وحتى الغزالة والحسناء، ليسا إلاّ مسخين أوروبيين لم يدخلا الموروث الليبي لترويهما أمي، كما فعلت مع كتاب هيرودوت، وبلاد برّ الكلب، ولوحات الاكاكوس، بل أن الإناث لايلعبن دوراً ذا بال حتى في مسخ (الكاتب الليبي الحديث صادق النيهوم) الذي أسماه (القرود)، وكذلك (الحيوانات) مهتدياً بالإنجليزي المتشائم (جورج أورويل)، والأهمّ أن كل المسخ الذي ذكرت كان عكس اللعبة التي ألعبها، وعكس الأمثولة التي أكتبها. فكلها تمسخ البشر حيوانات عقاباً، أو حسداً لهم، وأحياناً وكما فعل (أورويل) و(النيهوم) هجاءاً وسخرية منهم. أما أنا، وتأثراً بالموروث الرعوي الليبي على مايبدو، وربما انتقاماً من كلبنا الذي خذلني حين كنت وأختي التي تكبرني بعامين نسرح مع خرافنا الصغيرة، وسط وادينا الصغير بورفلة، ورأينا ذئباً يطل علينا وعلى الخرفان من خلف قصر روماني، وعرفنا أنّه يتربص لمهاجمتنا، فأنطلقنا نحوه متشجعين بكلبنا الذي تقدم أمامنا نحو الذئب. صعدنا الجبل مسلّحين بالحجارة، مساندين لكلبنا المقدام، ورأينا الذئب يتراجع فأندفعنا أكثر.

بعد القصر الروماني بمسافة قصيرة توقف الذئب، واستدار إلينا متحدّياً. تجمدنا، وكذا كلبنا، ثم بدأ الذئب يتقدم نحونا، وأخذنا نتراجع، وكذا كلبنا. كشّر الذئب ليطلق كلبنا قوائمه للريح، ونحن خلفه، والذئب خلفنا، حتى اختفى كلبنا وراء الخرفان محتمياً بها، وكذا فعلنا، ليقتل الذئب خمسة من الخرفان بسرعة البرق، ويخطف أحدها ويمضي. كان كلبنا الأبيض قد تحوّل إلى أرنب في عيوننا، وإلى جبان خذلنا. هل كنتُ أنتقم منه، وأنا القي به في هذا المصير الآدمي الليبي؟

ولكنني ورغم كل شيء منحته امرأة شقراء، ايطالية، وأسكنّته البيوت، وقدّمت له أطباق اللحم، وأسقيته الحليب، ورأسته على بعض البشر، والمهم أنني أحاول أن أجعله أمثولة للآدميين قبل الكلاب. ولم امسخه حشرة مقززة قذرة كما

فعل (كافكا) ببطله الآدمي الممسوخ، وهو، وكي لا نذهب في الاندماج كثيراً، ليس إلاّ بطل أمثولة خيالي، مثله ككل أبطال الأماثيل والحكايات ليس موجوداً إلاّ على الورق.

غربة سبتموس

أثناء كوابيسه تلك كانت طرابلس تمر بكوابيس مماثلة. كانت السنيورة وكان الأفندي إسماعيل وكذا السياسيون وعمال النظافة، بل والهاجون المتحولون، كان الجميع يعيش كوابيس مماثلة لكوابيسه، كانت الكلاب الهاجة إلى الغابة والتي ورغم مطاردة الجميع لها وحملات قتلها قد اخذت تهاجم ليل الجميع، وتقض مضاجعهم، وظهرت وعلى صفحات الجرائد رسومات ساخرة لرسام (الكاريكاتير) الأشهر في تلك الفترة (محمد الزواوي) تصور رجالاً انيقين وهم يتسلقون اعمدة النور هرباً من كلاب ضالة تطاردهم في ليل بنغازي وطرابلس، كانت مشكلة الكلاب الضالة قد هيمنت على طرابلس، وتحولت إلى جانب قضايا فلسطين والقواعد الأمريكية والانجليزية والفقر واحزمة الصفيح إلى حديث الناس وشاغلهم الهام والمقلق.

كانت مخاوف السنيورة والأفندي إسماعيل قد ازدادت منذ موقعة (ميدان الشهداء) التي خاضها البوليس ضد الطلبة الذين اعتبرهم الأفندي إسماعيل ورؤساؤه (حسب ما قال لبطلنا) كلاباً ضالة، تنشر بين الناس وباء الكلب والقومية والناصرية، فشعاراتهم وهتافاتهم صارت على لسان الجميع، فقراء وأغنياء.

حملة قتل الكلاب الضالة ومطاردتها إلى خارج العاصمة لا تستهدف تلك الكلاب فقط، بل كانت مجاهرة بقوة الدولة وقدرتها على مواجهة الاخطار من أي مصدر كانت، وصاحبت تلك الحملة حملة إعلامية كبيرة قادتها وزارة الإعلام وانتشرت فيها سيارات لاندروفر جديدة منصوب عليها مكبرات صوت لا تتوقف عن إطلاق هتافات تمجيد للملك والمملكة، إلى جانب اناشيد حماسية، كانت أصوات سيارات وزارة الإعلام قد بدأت تغطي على عواء الكلاب الضالة وهي تهاجم أطراف المدينة وعلى أصوات الرصاص الذي يتصدى به الحرس البلدي لأفواج تلك الكلاب.

كانت الحرب على الكلاب قد تحولت إلى مشروع وطني لإصلاح البلاد وتجديد نظام حكمها المتداعي، فإلى جانب نفي بعض الناشطين للأرياف البعيدة وللواحات الابعد، انطلق مشروع توطين الهاجين وذلك ببناء بيوت شعبية لهم بدل الزرائب والأكواخ التي كانوا يحاصرون العاصمة بها كجيش لن يتراجع عن اقتحامها.

خطة التوطين ورغم أنها بدأت فعلاً إلا أن ثمارها ما كانت بحجم الآمال والطموحات التي عقدتها عليها الدولة، فكان لابد من توفير الميزانيات وإعداد المخططات، وكان النفط (مصباح ليبيا السحري) في بدايات تصديره ولا زال دخل البلاد منه بسيطاً، لذا ورغم كل مكبرات الصوت والاناشيد ظل الطلاب يتظاهرون من حين لأخر، وشهدت الموانئ إضرابات للعمال (ليس من أجل تحسين أوضاعهم) بل تضامناً مع مصر وفلسطين.

كان بطلنا وهو يتجول وسط عشش وأكواخ المتحولين قد عرف عبد الناصر ومصر وفلسطين، وعرف الطليان، ليس كما عرف السنيورة (كملاك لتحوله) بل كمغتصبين للأراضي والمزارع. أحد المتحولين من سكان الأكواخ قال له مرة «إن

مزرعة سنيورتك، أرض للتواجير، صادرها الطليان ومنحوها لها بعد أن زرعها الليبيون سخرة وتحت أزيز السياط.»

لم يصدق ما سمع وسأل السنيورة مستنكراً كلام الليبيين عنها وعن المزرعة، لم تجبه بل ابتسمت ساخرة مما سمع وسمعت، ثم قالت بعربية خشنة «كلاب».

كانت تلك الكلمة قد اشعلت نيران مخاوفه أكثر، فهو يعرف أنها تذكره بأصلة وجنسه، وأنها قد تلقي به إلى بنادق الحرس البلدي في أية لحظة.

عاد باكراً في احد الصباحات من غابة الكلاب تائها إلى شوارع المدينة، ثم جلس كمتشرد منهك إلى نافورة الأحصنة بميدان الشهداء، كانت الأحصنة تشبو خلف ظهره وتصهل دون ان ينتفض أو يتحرك أو حتى يلتفت نحوها، لم يفكر في المسخ الذي ربما يكون قد اصابها، كانت بالنسبة له في تلك اللحظات ليست إلا تماثيل جامدة وإن ظل صهيلها يزمجر في أذنيه، كان (بنك روما) المتربع خلفه وخلف نافورة الأحصنة حياً وينبض بزبائن يدخلون ويخرجون منه، نهض مبتعداً عن الأحصنة وبنك روما، ليقابله تمثال سبتموس سيفيروس المنتصب أمام مدخل سوق الترك والسرايا الحمراء، كان سبتموس يرفع يده وكأنما يحيّ المارين من امامه أو ربما يشير لعربة لتنقله بعيداً عن طرابلس.

كانت كل المشاهد مرتبكة رغم الإنتظام الظاهر لها. كان الفرن الطرابلسي يغلي حقاً، وكانت مخاوفه تكبر وتشتعل نيرانها في صدره.

لقد عرف انواعاً كثيرة من المتحولين، الأفندي إسماعيل، سالمة، سكان الزرائب والأكواخ، كانوا آلافاً من البشر، ولكنه وحيد، لا أحد من المتحولين مثله، حتى الغزالة التي ألفّ قصة لها (بالأحرى اقتنع بالقصة التي ألفتها أنا، كاتب هذه الامثولة لمسخ الغزالة إلى حسناء أو حورية طرابلسية) ظلت قصة يرويها لنفسه فقط، فلم يجد للحورية من أثر، هو موجود يسعى، رجل كان كلباً، أو كلب صار رجلاً. أما هي؟ الغزالة أو الحسنا، فليست كائناً يسعى، فقط نحت بديع لايطالي متمكن، صنم غزالة وحسناء ينهمر عليه ماء نافورة مالح، هل كانت عملية مسخ فاشلة لتظل الغزالة والحسناء عالقتين في برزخ التحول هذا؟ أم أن المسخ لا يصيب الإناث كما في لوحات اكاكوس، حيث تستلقي النساء على ظهورهن دون أن يصيبهن ما أصاب الرجال، أو ما أصاب الكلاب من مسخ وتحول؟

عفواً أيها القاريء.. اكتشفت الآن خطأ كبيراً في سردي لقصة رجال الاكاكوس الكلاب، فكان علي ان اسردها أو بالأحرى أن اؤلفها لتكون مطابقة لقصة بطل أمثولة هذه، أعني أن اؤلف حكاية لمسخ كلاب الاكاكوس إلى رجال اثر غواية حسناوات ليبيات لها، كلاب برية لم يستأنسها سكان الاكاكوس في اقصى الجنوب الليبي، تعيش جنان العصر المطير قبل عشرة آلاف عام من الآن، وقبل ثمانية آلاف عام من قدوم أبوليوس إلى طرابلس وتأليفه لمسخه الرائد وقبل هيرودوت وكتابه الليبي وقبل سخط (قرزة) وقبل كائنات أوفيد المتحولة.

كلاب العصر المطير التي تصور لوحات ماقبل التاريخ تحولها أو مسخها، أو (انسنتها) في احضان ليبيات يجدن الإغواء والامتلاك والمسخ، كانت تعيش حرة وسط غابات ليبيا اثناء عصرها المطير وقبل تلك الغواية المدمرة لكل الكلاب والغزلان والفيلة والزرافات وكل كائنات العصر المطير، لتنوح حوريات (أوفيد) على ينابيع ليبيا الجافة وعلى تحول تلك الجنان والغابات إلى صحراء قاحلة.

اصحح الآن أيها القارئ العزيز أن لوحات الاكاكوس التي ظللت أعود إليها دائماً في سردي هذا تصور مسخ كلاب العصر المطير إلى رجال، وكل ذلك بغواية ليبيات حسان وليس كما استنتجت بأن الرجال يتخذون هيئة الكلاب، على هذا النحو يبدو مسخ بطلي منطقيا ومنسجما مع تلك اللوحات، ومع تحول كل شيء في ليبيا منذ نهايات العصر المطير وحتى الآن.

التارقي الذي قادني إلى ركن الخصوبة ذاك كما اسميته وقتها قال عنها (كلاب) لا شك أنه يؤمن بما وصلت إليه الآن من أن كلاب العصر المطير الاكاكوسي كانت ضحية غواية (ليبيات) جلبنهم إلى تلك الكهوف الدافئة وحولنهم إلى رجال، اللوحات الاكاكوسية التي شاهدت في تسعينات القرن العشرين بـ(تدرارت اكاكوس) لاتختلف عما مر به بطلي في هذا السرد الامثولي، حيث تحول أثناء ممارسة الحب مع صاحبته الايطالية، وحيث وقف كما يقف رجال اللوحات، ويتحول كما كانوا أثناء الرسم يتحولون، وحيث ظلت تراقب تحوله هادئة وعارية، كما ظلت نساء اللوحات يستلقين على ظهورهن، كان لا بد أن رأسه ظل يقاوم المسخ كما ظلت رؤوسهم وكذا ذيله كما ذيولهم، كان لا بد أن وبرها تساقط كما تساقط وبره، ولا بد أن الاكاكوسيات تأملن اجسادهم وهي تتأنسن، وهي تمسخ إلى أجساد رجال، كما تأملته أمام المرآة وألبسته (روب) نوم، ليبدو رجلاً رغم ذيله القصير الذي ظل يرفع الروب منتفضاً، بالضبط كما تنتفض وتضرب الهواء أرجل الخراف المذبوحة قبل أن تسلم الروح، أحس الآن فقط أنه كان يموت ويبعث رجلاً في طرابلس الليبية، في نفس اللحظة، إنه في تلك اللحظات غادر البراري والكلاب تماماً، بالضبط كما غادرت كلاب الاكاكوس جنتها إثر غواية ليبيات فاتنات.

تذكرت الآن خرافة ليبية ترويها بعض عجائز ورفلة، هي تعزز امثولتي، بل تتطابق مع ما وصلت إليه عن كلاب لوحات الاكاكوس الممسوخات رجالاً، منذ ثمانية آلاف عام كما يقول البروفيسور (فبريتسيو موري) وليس منذ عشرة آلاف عام كما اوردت في بداية هذه الامثولة، كما ترى عزيزي القارئ، أنا كاتب اماثيل لا يتوقف عن تصحيح سرده دون شطب الأخطاء السابقة واعادة كتابة النص من جديد، أنا كما ترى احكي ولا اكتب.

الخرافة الليبية تقول ان قبيلة البسيلي في سرت وبعد أن جف زرعها وضرعها بسبب رياح الجنوب الحارة التي يسميها الليبيون (القبلي) ويسميها الطليان (ليبيتشيو) أو (الريح الليبي الحار) وهو الاسم الذي أطلقته سنيورة هذه الامثولة على بطلنا الممسوخ، منذ أن رأته بحوض سباحة بيتها الطرابلسي، وبعد تشاور حكماء وشيوخ تلك القبيلة قرروا أن يهاجموا (عيون الريح) في أقصى الجنوب الليبي لردمها وحبس الريح المدمر في جوف الصحراء الكبرى، تجهز رجالهم ورحلوا لمحاربة

الريح ودفنه في مهده، ولكن أحداً منهم لم يعد، لأن (ليبيتشيو) قتلهم بالعطش وابتلعتهم عيونه، انقرض رجال البسيلي وظلت نساؤهم ينتظرن عودتهم دون جدوى، (هيرودوت) يورد هذه الرواية في كتابة الليبي أو (الكتاب الرابع)، هو لا يذكر النساء بالطبع، ولكن عجائز ورفلة يوردن مايخص النساء، ويشطبن ما يخص الريح، أنا ومن باب الحيل القصصية جمعت بين خرافة الورفليات وتاريخ (هيرودوت) .

عرافات قبيلة البسيلي المنقرضون رجالها، اخترن من بنات القبيلة أجملهن واطعمنهن لشهور نبات (القنقيط) وهو نبات (مخدر) يسبب الهلوسة لمن يفرط في تناوله مع (الكسكسي) واطلقنهن في براري سرت، ليخالطن الذئاب والكلاب البرية لإغوائها والحمل منها بذرية جديدة، ولكن الأطفال الذين حملت بهم حسناوات البسيلي كانوا خليطاً من الكلاب والرجال، كما رجال لوحات الاكاكوس، مما جعلهم يهجون إلى أقاصي الجنوب ولا يخالطون البشر أمثالنا، لتتأسس بهم (بلاد بر الكلب) كما تسميها أمي وعجائز ورفلة. ولتظل تلك اللوحات شاهداً ووثيقة تصور ذلك البرزخ الذي تقف فيه كلاب العصر المطير وهي تمسخ رجالاً، وتستلقي فيه حسناوات قبيلة البسيلي على ظهورهن عاريات يراقبن فعل سحرهن على تلك الكلاب البرية الهائجة.

لوحات الاكاكوس تظهر نساء البسيلي وكلاب وذئاب ليبيا الممسوخة رجالاً، تلك نتيجة ممتازة أوصلني لها هذا التركيب بين سرد هيرودوت وسرد عجائز ورفلة، طبعاً بروفيسور (فبريتسيو موري) لايقول هذا و لا يرى تلك اللوحات إلا تعبيراً عن الخصب الذي يتمتع به الرجال كما يرى الرسام الاكاكوسي، فالليبيون وحتى الآن يرون قدرات الكلاب الجنسية فائقة التصور وحسب (موري) فإن محنة (البسيلي) أو (محاربي الريح) وقعت بعد رسم تلك اللوحات بأربعة آلاف عام، ولكنني كاتب اماثيل الآن ارتب الأحداث حسب ما يخدم بناء امثولتي وتماسك سردها و لا يهمني التاريخ.

بطلنا اجتاز تلك اللوحات بسلاسة ويسر، لم يعاني إلا كوابيس أقرب إلى كوابيس بطل (كافكا)، وبدأت عذاباته بعد التحول، الذي أنجز بسرعة ودونما احساس بحدوثه، بطل (كافكا) مات في البرزخ، بطلنا ظل يسعى جيئة وذهابا عبر ذلك البرزخ الطرابلسي، لكأن المسخ الذي دشنه سلفنا العبقري (أبوليوس) بحماره الذهبي، منذ عشرين قرن من جلوسي هنا بطرابلس أيضا وسردي لهذه الامثولة، لكأنه وصل إلى نهايات غير سعيدة على يد الأوروبي المتجهم (كافكا)، أما في طرابلس ومنذ أبوليوس وحتى مسخنا هذا فإن اللعبة تمضي أبعد من المسخ والموت بعده، إننا نصر على نجاح المسخ رغم عذابات ابطالنا، والأهم أن طرابلس تشهد عبر امثولتي هذه مسخاً للكائنات غير الآدمية إلى بشر يسعون، يراوحون بين البشر والكلاب، بين الغزالة والحسناء، ولكن أبوليوس وكافكا يتفقان على مسخ الكائن البشري ويذهب خيالهما إلى نفس اللعبة القصصية، إلى (الأماثيل) الإنسانية وتعاليمها ،تبدو الأمثولة لطيفة ظريفة عند سلفنا (أبوليوس) وكابوسية مرعبة لدى (كافكا) ولكنها تعلي من شأن الإنسان وتخاف على كيانه وقيمته وهيئته من المسخ والتحول إلى كائن آخر، خنزير أو خرتيت (تذكرت السيد يوجين يونسكو)، أو قرد أو وحش، أما رسام الاكاكوس بالجنوب الليبي ومنذ ثمانية آلاف عام

وعجائز ورفلة حتى الآن، فإنهم وعلى غير المعتاد في (اماثيل المسخ) يسردون حكاية مسخ آخر، وعذابات أخرى، مسخ كائنات أخرى إلى (رجال)، إلى بشر، أنا وجدت نفسي عبر هذه الامثولة اتبع رسام الاكاكوس وعجائز ورفلة.

حسناً لنعد الآن وبعد هذا (الاستطراد) وهو لعبة يلعبها ساردو الاماثيل ليمنحوا انفسهم الراحة ولخيالهم الفرصة لتأليف أحداث ووقائع كي يلقوها على مسامع جمهورهم بعد الاستطراد. بالطبع أنا ظللت طوال هذا السرد استخدمه وأناور به فلقد بدأت الحكاية دونما حكاية وكنت دائماً بحاجة له هرباً من غياب الوقائع والأحداث لحكاية امثولتي.

قلت إن بطلي اتجه من أمام بنك روما نحو تمثال سبتموس سيفروس وكان الميدان يعج بأصناف البشر، كان الرجال يسرعون في سيرهم وكانت النساء الملحفات بالأبيض في غالبهن يتمهلن في سيرهن حذرات كالعادة، كان مقهى (الكوميرشو) يضم بين حيطانه الزجاجية رجالاً خليطاً من الليبيين والطليان ينظرون إلى الميدان وإلى سبتموس وكان يعرف بعضهم عن طريق السنيورة، حياهم وهو يدخل وطلب (الكبتشينو) الذي يحب، ورأى لأول مرة صورة عبد الناصر وعبد الحليم حافظ، كانت بدل وتسريحات رواد المقهى الليبيين لا تختلف كثيراً عن بدل وتسريحات الزعيم ناصر ومطربه عبد الحليم.

كان كل شيء داخل المقهى مرتباً وهادئاً وانيقاً، حتى هزته صرخة «روما!» التي أطلقها أحد المارة بصوت عال، ليلتفت الجميع إلى مصدر الصرخة، حيث كان صاحبها يتقلب على الارض ويقفز عاليا وهو يردد مبتهجاً «روما!»، كان رياضياً ولا يتوقف عن القيام بعروضه عبر شوارع طرابلس أمام المارات الملحفات بالأبيض، وهو يردد «روما!... روما!»، لا أحد من طرابلس يعرف ما سر كلمة (روما) التي يطلقها دائماً، وهو يتحرش بالليبيات ويحاول إغوائهن بعضلاته المفتولة وجسده الرياضي المتناسق.

تذكر أثر تلك الصرخة صاحبته الرومية التي لم يعد إليها منذ يومين أمضاهما على تخوم طرابلس وسط الكلاب الهاجة، كانت الكلاب المطاردة قد بدأت تتكيف مع ملجأها الأخير، وبدأ غالبها في تذكر الصيد والافتراس، وقال له أحدهم عندها أنه يشم رائحة أنثى تنادي للتزاوج والتخصيب، ليركض معه دون أن يلتقط تلك الرائحة التي يبدو أنه نساها وما عاد يعرف إلا رائحة السنيورة من الإناث، لم يتقدم نحو جمع الذكور حول تلك الأنثى البيضاء، كان الصراع بينهم على أشده، كانوا ينتفون وبر بعضهم البعض، وتغوص انيابهم في قوائم خصومهم لأجلها، أما هي فتقف ناظرة إلى الأرض وذيلها يندس بين ارادفها، كانت روائحها ورغم انكماشها الظاهر، على ما يبدو اغرقت مناخيرهم لتهيج أجسادهم وتطلق عواء الرغبة شرساً وعالياً، لم ينتظر كي يرى من سينالها اولاً، فأنفه قاده فيما يشبه الحلم إلى رائحة يعرفها، خليط من روائح عشب الوديان والعرق البشري، كان وهو يتبع تلك الرائحة قد انتصب على قائمتيه الخلفيتين كأي آدمي ،ثم قعى على ذيله القصير وعوى كأي كلب، ليواصل سيره نحوها على أربع، حتى رأها تحت شجرة تتخبط في دمائها، وكان أحد الكلاب يخنق رقبتها بانيابه، وتصك فراسمها الأرض، كانت على وشك الموت، كانت الغزالة التي عرفها صلصالاً جامداً، قفز على ظهر المفترس وغرس انيابه فيه ولكن انيابه البشرية خانته، احس بها توشك ان تقلع من جذورها، فسقط على

ظهره وارتطم رأسه بالأرض، ورأى المفترس يقفز بإتجاهه شاهراً أنيابه المرعبة، أحس أنه آدمي يواجه وحشاً مفترساً، أوشكت انياب المفترس أن تطبق على عنقه لتذبحه، ولكن يده (الفك البشري) وصلت إلى رقبة الكلب وانقضت عليها، لم يعرف قوة هذا المخلب البشري الذي منحه إياه (المسخ) إلا تلك اللحظة، جحظت عينا الكلب مختنقاً، لتمتد يده الأخرى وتضرب أاس الكلب بحجر ألتقطه من جواره، سقط الكلب صريعاً، ونهض (المسخ) على قدميه الآدميتين، كان رأس الكلب ينزف وكذا كانت الغزالة تنزف، أما هو فكان يقف سليماً إلا من مخاوف وبقايا كوابيس.

اقترب من الغزالة التي نهضت وشبت على قائمتيها الخلفيتين وتعلقت قائمتاها الأماميتان بكتفيه، وتدفق من عينيها النجلاوين إمتنان غمر قلبه، ثم تراجعت إلى الخلف كآدمية خجلة قبل أن تعود قائمتاها الأماميتان إلى لمس الأرض والانسحاب، كانت روائح العشب والزهر البري وحليب الأمهات وخبز الشعير المخلوط بدقيق القمح، تغمر الغابة كلها، كانت غزالة (ترغلات) ومصب وادي كعام، كانت روائح سالمة، ما غمره، ليمد أنفه خلفها وهي تبتعد جريحة، وحتى بعد تلاشيها في الغابة وغيابها عن بصره ظلت روائحها حاضرة تملأ ما حوله من وجود.

تذكر سالمة وهو يمر من أمام تمثال (الغزالة والحسناء)، متمهلاً، واحس بأنين الغزالة تحت الصلصال الايطالي، وكان سؤالها المتسمر بعينيها «ما الذي تفعله بنا أيها الآدمي؟» يصل روحه صوتاً تردده كهوف أعماقه صدى، كان في تلك اللحظات وصورة الغزالة الجريحة وروائح العشب والزهر والحليب والخبز تغمره، قد أحس بأن سالمة صنوه في المسخ، وأنها تعيش ما يعيشه، ورغم كل الألم الذي أحس به لعذاباتها إلا أن فرحاً خفياً تملكه، فثمة شريك بل شريكة في المصير الآدمي الذي يعيشان، ورأى ممسوخين يهبطان طرابلس إثر غواية، ذكر وأنثى، كلب وغزالة، رجل وامرأة، يراوحان عبر البرزخ الطرابلسي تائهين، لا هم من البشر ولا من الكلاب أو الغزلان، وحيدان كآدم وحواء، ينجبان جنساً جديداً آخر، يحلمان، لا يفكران بالعودة ولا بالتسمر، بل بالسير معاً. ففرن طرابلس ورغم قسوته جمعهما من نوعين مختلفين، وما كان ليحصل ذلك لولا طرابلس وفرنها المتقد.

رغم كل تلك التصورات والأحلام والكوابيس خرج من المقهى عائداً إلى السنيورة وإلى البيت، دون أن تفارقه صورة الغزالة وعينيها النجلاوين وذلك الإمتنان العميق.

كي لا تذهب الأمثولة بعيداً

هذه (الأليغوريا) تريد الذهاب بعيداً، أمثولة تسعى إلى مقامات ومراتب اخرى، ولاطاقة لي لانجاز ذلك، فهي تقفز من حالة إلى أخرى، من إستنتاج إلى إستنتاج، ومن تصور إلى آخر وكل ذلك يتطلب حوادث وغرائب ومصادفات قد تبدو فجة وساذجة، وقد تسرح بي بعيداً، وما دمت كليبي قد غادرت العصر المطير منذ آلاف السنين فلن ابدد الماء خارج كوب (البناء الأمثولي) القصير والمتواضع، فهي وبعد السطور الماضية تريد أن تورطني في بناء ملحمة على قواعد هشة، تريد أن تنزل بكائنين أسطوريين إلى شوارع طرابلس الضيقة، وأن تعيد سرد سيرة مطرودين من براري وجنان بعيدة إثر غواية، ليخوضا حياة آدمية قاسية على شاطيء المتوسط، حالمين بجنان العصر الليبي المطير، مشيعين عبر رحلتهما المضنية بنواح حوريات (أوفيد).

المسخ ورغم كابوسيته ورعبه غالباً، في أساطير وخرافات وأماثيل العالم، يعمر الفنون وتنهض على عذابات المسوخين أمجاد الشعراء، وتعلو صروح الملاحم، وتلقي بنتف أرواح المسوخين حكماً وأماثيل نافعة، والأهم أن المسخ الليبي، يبدو خفيفاً ظريفاً منذ مسخ أبوليوس وحماره الذهبي وحتى هذا المسخ الليبي الجديد، فلوكيوس بطل أبوليوس مسخته حبيبته دون أن تدري إلى حمار، ليمسخ في نهاية الأمثولة الظريفة كهنة (اوزوريس) الحمار إلى آدمي جديد، إن أبوليوس الساحر، يتمادى في سحره ولا يكتفي في لعبته بمسخ واحد بل يضمنها مسخين لكائن واحد، إنه يقلب الكائن الآدمي، ولا يكتفي بوجه واحد لهذا الوجود الآدمي المحير، حتى يتهمه الليبيون في ذلك الوقت بالشعوذة والسحر، يناظرونه فيما يشبه محاكمة سقراط بصبراتة غرب طرابلس، ليرتجل (الابولوجيا) مرافعته الخالدة ضد تلك التهم، ولأن طرابلس وصبراته والتريبوليتانيا كلها متسامحة ولينة وتعشق السخرية من (الكائن الآدمي) منذ عشرين قرن وحتى الآن، أعني منذ جلوس أبوليوس بطرابلس وحتى جلوسي بها الآن، منذ (الحمار الذهبي) وحتى مسخي هذا، فإن أبوليوس لم يتناول كأس السم كما فعل سقراط اثينا، بل شربت صبراتة وطرابلس ولبدة الكبرى، عصير الابولوجيا، التي قدم لها كاسها أبوليوس، بتلذذ واستمتاع.

أبوليوس الظريف ورغم مزاحه الذي يبدو غمزاً وسخرية من نفسه أولاً ومن اسمه ومن الكاتب، أيضاً من اسم رجل هام أخر، في تاريخ لبدة الكبرى، والتي لا تبعد عن طرابلس بأكثر من مائة كيلومتر، والتي كانت أكبر مدن إقليم (التريبوليتانيا) قبل قدوم أبوليوس إلى طرابلس، إلا أنه ورغم ذلك الغمز، ربما كان يخلد ذكرى ذلك الرجل على طريقته الخاصة، فـ(لوكيوس) الذي أطلق اسمه على بطل مسخه، كان إيضاً رجلاً هاماً في لبدة، كما كان لوكيوس أبوليوس في مدينته (مداور)، خدم مجتمعه اللبداوي بإخلاص شديد، وكانت سيرته العطرة قد عرفت في إقليم التريبوليتانيا، وأقيم له ضريح كبير بعد موته لتخليد ذكراه، كان وحسب ما عرف عنه رجل قيم ومثل، وافنى حياته خادماً لتلك المثل، أبوليوس إيضاً كان رجل مثل وأحلام، كان افلاطونياً حقيقياً عانى بسبب تلك المثل والأحلام واتهم بالشعوذة والسحر، وألقت به

بعد أن أسرته أرملة طرابلسية في فرن التحول الطرابلسي، ليعيد فصولاً من ذلك المسخ الرائد، بعد أن استعار له من الأسماء اسمه الشخصي وذلك الاسم اللبداوي النبيل، لتكون أمثولة الحمار الذهبي، هجاءاً ساخراً لمدينة، يتحول العاشق الحالم فيها إلى حمار مضطهد في عالم البشر القساة، ويتحول اسم الرجل النبيل إلى رمز للحمير من الرجال.

ولكن ماعلاقة كل هذه التحاليل والتفسيرات بامثولتنا التي اكتب الآن؟

أنا أيضاً كاتب هذه الأليغوريا جئت إلى طرابلس كما كان أبوليوس منذ عشرين قرن قد جاء، جئتها كاتباً كما جاء، ووجدتها ساحرة كما وجدها القادمون إليها، وتعلقت بالغزالة كما تعلق أبوليوس بالأرملة الطرابلسية وكما تعلق بطل امثولتي بالغزالة، وأمضيت كما أمضى بطلي ساعات طوال أتأمل الحسناء والغزالة، وأسرتني بالحب حسناء طرابلسية، هي متحولة كما تقول امثولتي هذه، فهي من جبل نفوسة، هي مثل رغيف خبز قمح مخلوط بشعير، شهية ومتوهجة وكأنما خرجت من التنور للتو، التقيت بها في مسرح بطرابلس ووقعت في حبها مباشرة ودونما حسابات لشيء، كانت أرملة عاطفياً فلقد فارقت حبيبها قبل أيام من لقائي بها، كانت ضحكتها ثلجاً ينثر في قيض صحراء مريع، تبدو للوهلة الأولى هادئة ورصينة ولكن جنونها يفاجئك على نحو خاص حين تختارك للجنون، كانت حقاً غزالة تقفز من حالة إلى اخرى، وقفزت بي خارج كل الجاذبية التي عرفت وتعودت، فما أن شهرت نهديها في وجهي وسط ممر غير آمن بمدينة لبدة الأثرية وحولنا السياح والادلاء السياحين وبوليس السياحة حتى أصابني غبش الأماثيل، ربما أقول ربما، هي أصل تعلقي بالغزالة وبالتالي تعلق بطلي بها، بالغزالة والحسناء. وتعلق روايتي بالأماثيل والخرافات.

هل اكتشف الآن سر كتابتي هذه، وسر بطلي وسر لوكيوس أبوليوس، وسر الغزالة والحسناء؟ هل تعود كلها إذن لتلك الغزالة ذات الضحكة المنعشة في قيض الصحراء الكبرى، تلك التي منحتني قبلة من نبيذ وجعلتني ارتجل على هذا النحو مسخاً ليبياً جديداً، مغلفاً بمناخات الأليغوريات المتوارثة، من أمي ومن هيرودوت وكلاب العصر المطير الرجال و... و...؟ بالطبع ما كنت لأكتب حكاية نهدين منفلتين في يوم غائم بلبدة الأثرية إلا عبر هذا الغبش الأمثولي الفضفاض، بالضبط كما فعل أبوليوس منذ عشرين قرناً، حين تفنن في سكب عصير لذائذ مغامراته في مسخه الأمثولي الرائد بلا رقيب ولا حسيب، ولكنني الآن أجلس للكتابة بطرابلس وأنا في الستين من عمري، اجتر حين اتوقف عن الكتابة ذكريات حب حار لأهرب منه بالكتابة، فطرابلس والكتابة تظللهما عجاجة الطاعون الأسود التي اقتلعت تمثال الغزالة والحسناء وجعلت الأوراق تفر من دفاترها والحبر يفر من اقلامه وجعلت الكاتب يناور بالأماثيل وغبش الرؤى، فالطاعون الأسود الذي اكتب تحت ظلال عباءته ،لن يسمح للأمثولة بأن تطاول الملحمة، ولا للنهدين المنفلتين ولا للذائذ المحرمة بأن تعمر هذه الأمثولة، لذا على هذه الأمثولة ألا تمضي بعيداً، فلن تنفع اي (ابولوجيا) الآن، بعد عشرين قرن من (ابولوجيا) أبوليوس وصبراتة.

كلبي الذهبي

حين دخل بطلنا البيت فوجيء بالأفندي إسماعيل يجلس في الصالون وحيداً، كانت السنيورة تعد القهوة على ما يبدو. هي ليست المرة الأولى التي يزور فيها الأفندي إسماعيل بيتهم والسنيورة، فمعرفته وعلاقته بها أقدم من قدومه ووجوده هو ككلب وكزوج بالبيت.

حيّاه وجلس مقابلاً له دون أن يتبادل معه كلاماً غير التحية والسلام، ولكنه أحس بنظرات الأفندي المستنكرة لكل شيء فيه في تلك اللحظات، كان ثمة إزدراء له هذه المرة عكس ما تعود عليه من إعجاب وإطراء في كل نظرات الأفندي منذ عرفه.

الأفندي لم يقل له شيئاً على غير العادة ولكن السنيورة طلبت منه أن يذهب ويستحم، ثم وجهت كلامها للأفندي «إنه يبدو ككلب عاد من تقليب الزبالة» فنهض دون ان يرد بكلمة ومضى ليس إلى الحمام بل إلى غرفة الأطفال وقفل بابها خلفه واتجه مباشرة إلى الصورة المعلقة على الجدار، حيث لا يزال الايطالي يعتمر القبعة والكلب الأسود ينظر إليه. انزلها عن الجدار وألقى بها على الأرض وبال فوقها، فعل ذلك دونما إحساس بشيء. لم يكن غاضبا ولم يكن سعيداً، كان كل شيء يحدث هكذا، بالضبط كما قد يقلب كلب صحن طعامه ويبدد الطعام على الأرض ليتناوله بعدها أو يتركه مبدداً.

السنيورة وبعد أن ودعت الأفندي جاءت غاضبة وفتحت باب الغرفة بعنف فوجدته يقف على اربع مواجهاً لها تماماً، كان قد اتخذ هيئة كلب يستعد لمعركة فارتبكت وظهر الخوف على ملامحها سريعاً دون أن تتراجع، ثم تمالكت نفسها وقالت «ما بك؟!» فتقوس ظهره وامتد عنقه إلى الأمام ثم ارتفع رأسه باتجاه السقف وكشر عن أنيابه فتراجعت السنيورة إلى الخلف خائفة وهي تكرر «ما بك؟! ما بك؟!» ودون أن تنتظر رداً منه خرجت على اعقابها واقفلت الباب.

لم يكن غاضبا ولم يكن ثمة اي شيء بداخله يبرر ما ظهر عليه من تربص للقتال وغضب، كان كل شيء يحدث منه هكذا، دونما رغبة ولا دافع داخلي منه، لكأنما قوة خارجية تفعل بجسده ما فعل.

ظل يدور وسط الغرفة على أربع وذيله القصير ينتصب، كان عارياً ومتحرراً من كل قيود، وكان وجه الايطالي يظهر من وراء زجاج الصورة وقطرات البول متكسراً، اما الكلب الأسود فعلى حاله، مندهشاً ومتسائلاً وربما مستنكراً لما جرى أو يجري في تلك اللحظات المتجمدة.

فتح باب الغرفة وانطلق يتجول في البيت على أربع عارياً، واخذت السنيورة تتابعه بنظراتها خائفة ومندهشة لما يفعل، عاد نحوها بعد أن دخل المطبخ وسمعته يقلب بعض الصحون ثم سمعت اكواباً تتكسر، كان ثمة إحمرار في عينيه، وبدا فمه

وهو يلهث محمراً، ولسانه أشبه برئة تشوى على النار، اقترب منها، تشمم عنقها ووجهها ثم لحس بلسانه الملتهب ما بين ثدييها، دون أن تستطيع حراكاً، ثم تراجع إلى الخلف وانسحب دونما كلمة إلى الغرفة من جديد ثم خرج وقد ارتدى ملابسه واغلق باب البيت وراءه.

في الشارع سار منحني القامة، كعجوز في التسعين، لم يستطع أن ينتصب كما كان بعد مسخه، تعثر مرات عديدة حتى أوشك على السقوط على وجهه، ولكنه واصل سيره بإصرار، كانت الشمس تغطس غرباً وكان العرق يتدفق من جسده ولم يستطع أن يمنع لسانه من اللهاث خارج فمه.

كان يسير نحو الغابة حيث الكلاب. لم تعد إلا مسافة قصيرة ويستطيع بعدها أن يركض على اربع دون أن يلاحظ أحد ذلك، فبإمكانه من المسافة الفاصلة بين غابة الكلاب وآخر بيوت المدينة أن ينطلق ككلب يغطيه الظلام. ولكنه وما أن أنزل قائمتيه الأماميتين ولامستا الأرض حتى سمع صوت البوليس يطلب منه التوقف، سأله البوليس «ما بك؟» لم يجب وألقى البوليس القبض عليه.

لم يوقفوه طويلاً في مركز البوليس فقد أمر الضابط نفس البوليس بأن يأخذه إلى المستوصف فالرجل مريض على مايبدو. هكذا قال الضابط الذي تعرف منذ البداية على (سعيد) أو (زوج السنيورة)، كانت حرارة جسده قد زادت وبدأ يحس بجمر يلتهب داخله.

الطبيب الايطالي المناوب وبعد أن فحصه جيداً، أعطاه حقنة وابقاه ممداً على السرير، ثم سمعه يتحدث مع السنيورة بالهاتف، بعد ساعة اقتاده الطبيب معه إلى سيارة المستوصف وطلب من السائق أن يعودوا بالسيد سعيد إلى بيت السنيورة، كما قال.

في البيت تولت السنيورة العناية به، كانت تضع على رأسه ضمادات باردة وهو ينظر إلى ما يجري ساهماً لايفهم شيئاً ولا يشعر بشيء، كان يراقب ما يجري وكأنما كان يجري لشخص غيره. ثم نام، استغرق في نوم عميق ورأى في منامه وبره الابيض يرفرف عائداً ويحط على جسده، وانيابه تعود كما كانت وقوائمه الأربعة تعود إلى شكلها الأول. كان جسده يتحرر، ينطلق راكضاً عبر براري شاسعة، يطارد أرانباً وطيوراً، لاهياً وسعيداً. أي سجن كان يقيده؟ وأي جحيم كان يعيش؟ صعد إلى ربوة عالية بتلك البراري وعوى كما ظل يعوي أسلافه، ومن ربوته العالية تلك رأى طرابلس فرناً يتقد، وهو الآن خارجه، بعيداً عن نيرانه المتقدة فعوى ثانية فرحاً وسعيداً، وسمع أصداء عوائه تتردد عبر البراري والجبال والكهوف، ثم رأى رفاقه العائدين يقبلون نحوه راكضين، كان الزعيم الأسود على رأسهم وكانت طيور الحجل والحمام تفر مدومة في السماء، وكان العواء يملأ الارجاء ويعمر خواءها، ينفخ في ذلك السكون ضجيج الحياة بعد فراغ طويل لتتراكض قطعان الغزلان والذئاب والضباع والثعالب وتحلق النسور والصقور والغربان، يطارد بعضها بعضاً كما كانت قبل الجفاف والتحول.

كانت السنيورة تراقب جسده وهو ينتفض ويربكها عواؤه المخيف فتنقع الضمادات في الماء وتغلف بها جسده، داعية ومتوسلة لكل القديسين أن يحفظوه رجلاً لها، وحارساً لبيتها ومزرعتها. أما هو فظل يركض ويعوي مع قطعان رفاقه وسط براري شاسعة بعيداً عن طرابلس والسنيورة باحثاً عن فريسة للاكل وعن كلبة بيضاء بذيل طويل وجسد ريان للتزاوج.

لم تنم السنيورة تلك الليلة بل ظلت حتى الصباح تجلس على كرسي إلى جوار سريره، تنقع الضمادات وتدعو القديسين أن يحفظوه، ولم تتوقف عن ذلك وتنهض حتى وصلت سالمة فطلبت منها أن تبقى إلى جواره وألا داعي لتنظيف البيت الآن.

سالمة لم تواصل نقع الضمادات بل سخنت على النار زيت زيتون وطلت جسده بالزيت الدافيء ثم سقته حليباً فتقيء مرات عديدة وعاد للنوم من جديد.

حين صحى من نومه قدمت له شراباً ساخناً أعدته من اعشاب ولحم ضأن وثوم وعدس وكثير من البصل، كانت عيناه تنفتحان كلما شرب جرعة من الشراب، وكان يعود، لكأنه كان يعبر عبر شرابها من ظلام دامس إلى فجر جديد، وكانت ابتسامتها المنعشة تسحبه إليها، أما السنيورة فكانت تغط في نوم عميق رغم أن هاتفها ظل يرن دون توقف طوال ذاك الصباح، فالأفندي إسماعيل كان قلقاً عليها وشكه يوشك أن يصبح يقيناً بأن زوجها مصاب بمرض الكلب وعليها أن تنتبه.

السنيورة طمأنها الطبيب إلى أن المسألة ليست إلا حمى مؤقتة وستزول، لذا استغرقت في النوم بعد سهر ليلة كاملة وهي على يقين بأنه سيشفى ويعود.

سالمه غادرته مساءاً بعد ان تحسن حاله، طمأنته إلى أنها ستعود إليه صباحاً، وأنه سيكون قد تعافى تماماً، فظل ومنذ مغادرتها ينتظرها، فلقد عاد من براري الحمى تلك لأجلها.

لكنها لم تعد، مر الصباح الباكر، ثم الضحى ولم تعد، وحين نهض ونظر من الشباك قبل أن يهم بالخروج رأى عربات الجيش والجنود بلباس الميدان يغلقون الشوارع، لم يكن البوليس ولا صديقه الأفندي إسماعيل بل الجيش، ولم يكن ثمة مظاهرات ولا حرب، فقط كان الجيش بأسلحته ينتشر في الشوارع، كان الجنود يضحكون فرحين، ربما قامت حرب وانتصروا فيها وهو يصارع الحمى، ولكن السنيورة كانت تتابع ما يجري بالشوارع عبر الراديو متنقلة من إذاعة ايطالية إلى اذاعة اخرى، قالت له إنه انقلاب، ثورة، ولم يفهم فقالت له «الملك انتهى» ولم يسأل اكثر، تركها والراديو، وعاد إلى الشباك يراقب الجنود والاسلحة. كان غالبية الجنود الذين يقفون تحت شباكه قد جاءوا طرابلس من حيث جاء غالبية المتحولين وسكان الأكواخ والزرائب التي تطوق العاصمة منذ زمن بعيد وتحاول اقتحامها. كانت سحناتهم تشي بذلك التاريخ من التحول وعذاباته، وكان هناك خلف الجنود وبين العربات العسكرية يتجول قطيع من الكلاب الهاجة دون أن

يمنعهم أو أن ينهرهم أحد كما كان يحدث في الأيام الماضية. إنهم يعودون، واحس بارتياح واطمئنان لذلك، بل فكر ان ينزل إلى الشارع ويلتحق بهم ولكنه تذكر أنه آدمي وسيمنعه الجنود.

ظل تلك الليلة ورغم إرهاق الحمى الذي يوهن جسده يراقب الجنود والكلاب العائدة من غابتها إلى شوارع المدينة وتجولها فيها كما كانت قبل حملة البلدية والبوليس عليها وقبل هجيجها، ومع الصباح التالي رأى من الشباك عشرات ثم مئات البشر، رجالاً ونساءاً يتدافعون مهللين فرحين بالجنود دون أن يعرف سبباً لكل ذلك، وازدادت دهشته وحيرته أكثر حين اقتحمت عليه سالمة الغرفة وهي تولول مزغردة وعانقته لأول مرة وقبلته في فمه دون أن يتوقف لسانها عن الولولة داخل فمه، ثم ضمت وجهه بين عنقها وكتفها وهي تقول «سنطرد الطليان والانجليز والامريكان» ودون أن يفهم شيئاً مما تقول عب بقوة رائحة العشب البري من عنقها واحس بيدها تضغط على ذيله دون أن يلقي بالاً لزوجته السنيورة التي كانت تقف عند باب الغرفة مندهشة لما يجري بينهما، ثم جرته سالمة من يده وخرجت به إلى الشارع بعد أن ازاحت السنيورة المندهشة عن طريقهما.

في الشارع كان الجميع يصرخ فرحاً، وانهمك في الصراخ معهم، وحين وصلوا إلى ميدان الشهداء وغير بعيد عن الغزالة والحسناء عوى لوحده وسمع رغم ضجيج الجموع أصداء عوائه تتردد عبر وديان وشعاب وكهوف براري بعيدة وشاسعة ثم زغاريد سالمة التي كانت تلتصق به وسط زحام ميدان الشهداء.

ساد الضجيج والعواء والجنود والبنادق طرابلس، وكانت صور الملك وولي العهد تداس بالأقدام و تمزق في ميدان الشهداء، كان الفرن الطرابلسي يمد ألسنته ملهباً للمشاعر ليعلو الضجيج والعواء أكثر، وكانت ناقلات الجنود تفرغ حمولاتها في الشوارع والميادين وامام مراكز الحكومة، ليختفي البوليس تماماً، كان تحولاً يحدث، لا يعرف ما هو بالضبط ولكنه وحسب ما رأى كان يخص أهل الزرائب والعشش، فهاهم يتجمعون وهو وسطهم، يصرخون ويهتفون ويعوي هو كما يشاء، كان الضباط يقودون مايجري، وكانت الجموع ترفع بعضهم على الاكتاف، وكانت سالمة تلتصق وتتمسك به وكأنه شيء يخصها واستردته بعد فقدان طويل، لم يتذكر في تلك اللحظات السنيورة ولا اندهاشها مما جرى بينه وبين سالمة. كان وسط الضجيج والعواء والجنود والبنادق قد احس أنه يتحول كما يتحولون، ليس كمسخه السابق، إنه يتحول الآن كما يتحول الآدميون المحيطون به وسط ميدان الشهداء.

قبل غروب الشمس أمرهم الجنود بالتفرق والعودة للبيوت فحظر التجول يبدأ من الغروب إلى الفجر.

عادوا إلى بيوتهم وعششهم وزرائبهم ولم يعد إلى بيت السنيورة بل مضى تقوده سالمة إلى كوخها حيث قرأ شيخ فاتحة زواجهما لينام ليلته الأولى وقد تحول من زوج السنيورة إلى زوج سالمة، وغرق في تلك الليلة في روائح الأعشاب البرية والحليب والوديان، بدا له الأمر كحلم، لكأنه يقترب من مرابعه الأولى عائداً، ولكأن رائحة الوديان وأعشابها التي تغمره بها سالمة تعيده إلى هناك، تطلقه من قيوده وتحرره من كوابيس المطاردة، كان يحس ويرى أن سالمة وهي تهم به تفك عقد السحر الذي مسخه وتبطل أفعال السنيورة فيه وتعيده، رأى الطلح والسدر والبطوم والذئاب والكلاب والاغنام والماعز

والابل والارانب والغزلان وهي تنبت وتكبر وتسرح في شوارع طرابلس التي عادت ودياناً تجري بها السيول وينبت بها العشب وتضوع بها روائح البر.

غوايات التحول والمسخ

حاولت أنا سارد هذه الأمثولة أن اتكئ على الغواية كسبب ودافع لحواديث تحولات ومسخ، مسخ يطال الرجال وتقوم به بإتقان وتفنن نساء، منذ كلاب الاكاكوس الرجال وحتى لوكيوس الذهبي واخيراً بطلي (ليبيتشيو العجيب) ورأيت طرابلس التي اعيش بها الآن واكتب، فرن تحول كبير، منذ أبوليوس والقرن الثاني للميلاد وحتى أنا والقرن الواحد والعشرين.

بطلي وبالغواية الثانية التي قامت بها سالمة يتحول، لم يكن هذا التحول الثاني بقدرية وغرابة الأول، ولكنه يبدو تحولاً عادياً كالذي يمر به الرجال إثر غواية، فيهجر المرء بيته وزوجته ويرتمي في أحضان مغويته الجديدة، هكذا وفجأة كما في الأماثيل والحكايات.

كانت الحمى والاحلام والكوابيس قد داهمته وعصفت به وألقت به هذه المرة إلى سالمة وسكان الزرائب والأكواخ. كانت رائحتها أيضاً ما جره إلى هذا التحول الجديد كما كانت رائحة السنيورة ما جره من مزارع ترهونة إلى طرابلس، بالتأكيد كان فعل السنيورة به شيئاً خارقاً قذف به من نوع إلى نوع آخر، من كلب إلى رجل، أما ما فعلته به سالمة فكان الإنتقال العادي، التحول من بيت إلى بيت أو من مهنة إلى اخرى، سالمة لم تبطل فعل السنيورة به بل افتكته منها كما هو (رجل).

غوايات المسخ لا تظهر غالباً إلا في الاحلام، احلام الأفراد والشعوب و أيضاً في الكوابيس.

الليبيون لم تتحول الكوابيس لديهم إلى حكايات ولا نجد الكثير منها في حكايات عجائزهم وحتى حكايات المسخ التي ترويها تلك العجائز للأطفال لا تبدو كابوسية بل تبدو لطيفة ومسوخها كائنات لطيفة، غزلان أو عصافير وكلاب وحمير، مما يجعلها احلاما تبعث على الفرح والحب والضحك، أما الكوابيس فلا يحكونها إلا ماندر، ربما لأن الحكايات تؤلف وتسرد للأطفال، أما التحول فيأخذ حيزاً ممتازاً في حكاياتهم فيتحول الفقير إلى غني ويتحول الدميم إلى وسيم وتنال الفتاة اليتيمة اوسم الأمراء. إنهم يصعدون سلالم طبقاتهم الإجتماعية في الأحلام والحكايات التي تنبتها تلك الاحلام.

بطل أمثولتي هذه ظلت تحوله احلام وكوابيس الآخرين، فلم تكن له من الاحلام إلا أحلام ماسخيه ومحوليه، بل إن وجوده كاملاً لم يكن إلا نتيجة لأحلامي وكوابيسي أنا مؤلف هذه الأمثولة. لقد كان حلماً لأرملة ايطالية صهدتها شمس طرابلس الحارة واخذت تهذي بالليبيتشيو الليبي، وكان حلم سالمة والأفندي إسماعيل والكلاب الضالة والغزالة والحسناء، ربما كان حلم طرابلس كلها في تلك الأوقات التي نزلت فيها كاتباً ريفياً، يحلم بالتحول ويعاني كوابيس المسخ. ربما كان حلمي أنا وحدي وكابوسي في نفس الوقت وأنا أقف منذهلاً وخائفاً أمام نهدين نافرين وسط لبتس ماجنا. ربما كان سلمي

للكتابة وشهوات الليبيتشيو وزوابعه، بالضبط كما كان لوكيوس حلماً ذهبياً لأبوليوس الرائد، لقد ظل يعوي في رأسي على مايبدو لقرون، ظل يناور كي يخرج للوجود ولو على هيئة بطل امثولي عجيب.

بعيداً عن شروحي وهوامشي واستطراداتي الكثيرة والتي لا تبدو غريبة على مؤلفي الأماثيل، بل هي جزء هام من بنائهم السردي المهلهل والكثير الفراغات والعيوب، وكي لا تلقي أيها القاريء بهذه الأوراق بعيداً، دعنا نعود لبطلنا ولطرابلس، فلقد عاد من ميدان الشهداء بصحبة سالمة وحشود المتحولين إلى الزرائب والعشش، وتم زواجه بها دون أن يدرك كيف تم ولماذا؟ كان مأخوذاً بروائحها البرية الحارة، كانت قد أغرقته تماماً في بحر تلك الروائح وولول لسانها في فمه بلذائذ كاد أن ينساها. كان البخور قد حول كوخها إلى فرن، وكانت حين تعرت قد تحولت إلى غزالة وأفعى وحورية بحر، هو لم يكن يدرك تماماً ما الذي كان يجري له، كان البخور قد بسط على الكوخ غبش الاماثيل وحوله إلى كهف من كهوف خصوبة الاكاكوس، وكان وهو يقف مندهشاً لما يجري يشبه تماماً كلاب الاكاكوس لحظات تحولها ومسخها، وكانت وقد استلقت على ظهرها واخذت يدها اليسرى تضغط على رحمها ولسانها يبلل شفتيها وتلمع عيناها كعيني ذئبة خبيثة، تبدو حقاً واحدة من نساء الاكاكوس المستلقيات على ظهورهن وتبدو بالنسبة لي أنا كاتب هذه الأليغوريا خليطاً من نساء وذئبات أحلامي وكوابيسي، بل إنها منها هي، من تفاصيلها، تلك الجبلية التي شهرت نهدين نافرين في وجهي وسط لبدة الكبرى.

المهم أن الغواية للتحول والمسخ كانت تلقي بشباكها مرة ثانية على بطل امثولتنا، وتحوله، لقد كان يمر تلك الليلة بما مر به لوكيوس على يد كهنة أوزوريس، ليتحول للمرة الثانية، ويرجع كما كان، ولكن ومع الإعتذار لسلفنا الصالح أبوليوس «لاشيء يرجع كما كان» فلوكيوس لم يعد كما كان، لقد هجر حياة اللذائذ والبهجة والمرح والمثل المستحيلة وتحول إلى كاهن في معابد أوزوريس تقيده الأنظمة الصارمة.

بطلنا أيضا لم يتجول كما كان، فلم يعد حقاً إلى جنان أسلافه الأولى، هو فقط انتقل من طرابلس إلى طرابلس اخرى، لقد هجر ببساطة جنان ملاك تحوله الأول إلى زريبة ملاكه الجديد، انتقل من سرير السنيورة إلى سرير سالمة.

الملاك الجديد لم يكن – حتى الآن – بقدرات ملاكه الأول الخارقة، فالسنيورة ومنذ قبلتها الأولى في فمه أخرجته من دائرة نوعه إلى نوع آخر، حولته من كلب إلى رجل، أما ملاكه الجديد فلم يكن أكثر من امرأة اغوته وجرته من بيت إلى بيت آخر، من حي إلى حي آخر من أحياء فرن التحول الطرابلسي.

غوايات التحول والمسخ لا تتطابق وإن تشابهت وكذا نتائجها، وما يجري لبطلنا يتناظر تماماً مع ما جرى لبطل أبوليوس. بالطبع أنا أعمل متناظراً مع العزيز أبوليوس وحماره الذهبي، حتى أني سأضع على غلاف هذه الامثولة (الكلب الذهبي) بدل العنوان الفاقع (المسخ الليبي) أو (ليبيتشيو العجيب).

كتابة الأماثيل وكما ترون تبدو مناسبة لكاتب مثلي لا يحب الإنتظام في صف، ولا يلتزم بأبسط قواعد الألعاب، بل يفضل أن تخرج كلماته ناقصة ويفضل أن يترك عيوب بنائه واضحة وسهلة الإكتشاف، إن (كعب اخيل) القاتل ميراثي الثمين.

(كعب اخيل) يشبه لسان اينشتاين في إحدى صوره وهو يمده خارج فمه ممزقاً به صورة العالم الجاد.

(هوميروس) يمد كعب اخيل ساخراً من أحلام البشر في الخلود.

البناء الأمثولي السائب والفضفاض والكثير الاستطرادات والشروح كعب هذه الأمثولة المعطوب.

بطلنا لم يعد بتحوله الجديد إلى ما كان عليه، مثله في ذلك كمثل (لوكيوس) وكيف اعاده كهنة (أوزوريس).

سالمه التي صار زوجها الآن، أخذته ومنذ الصباح إلى (الشيخ) الذي عقد قرانه بها وطلبت منه أن يعلمه كيف يكون زوجاً مسلماً بعد أن كان زوجاً لنصرانية كافرة. الشيخ شكرها وشرع في تعليمه الغسل والوضوء والصلاة ومعنى الصيام، وابهر الشيخ بقدرته على إستيعاب الدروس بسرعة ويسر وقال له مادحاً «أي بني إن جبلتك سليمة» هو لم يفهم معنى (الجبلة) ولكنه فرح كثيراً بالمديح الرباني الذي تلقاه من الشيخ. بدأ يغتسل من الجنابة كما أوصاه الشيخ بعد كل معاشرة مع زوجته الجديدة وتعلم أن يصلي اوقاته الخمسة بانتظام، وأن يذهب مع سالمة إلى مسيرات التأييد للثورة وأن يهتف ويصرخ ويعوي ويرى البراري تغمر طرابلس بسيولها ورمالها، ببرد ليلها وغبار نهاراتها، بتلك الأرواح الثائرة التي تكتسح في طريقها كل شيء وتجرفه نحو البحر. كان يرى عرائس البحر تنتفض مرتعبة وتغطس في المالح بينما تتراقص الغزلان عبر الشوارع والميادين التي بدأت تتحول إلى وديان وشعاب، وكذا كانت الذئاب والثعالب والضباع، كانت الحمير والجياد والابل، كانت البراري، براريه البعيدة تزحف متزاحمة على وديان وشعاب طرابلس، كان تمثال الغزالة والحسناء ينشطر كل لحظة من مسيراتهم وتفر الحسناء إلى البحر وتركض الغزالة حية عبر الشوارع والازقة التي صارت أودية وشعاب.

المرحلة الوردية

كان التحول يجتاح طرابلس كلها. لم تعد على ما يبدو تحول القادمين إليها وتمسخهم كما ظلت تفعل عبر التاريخ، فها كل شيء فيها يبدأ في التحول، الشوارع والحدائق والناس. إن المتحولين يحولونها الآن، ربما يعيدونها كما أعاد كهنة أوزوريس لوكيوس إلى ما كان عليه، ربما يحرق الفرن الطرابلسي نفسه الآن، يتهشم ويتحلل إلى طينه الأول، وديناً وشعاباً تسعى عبرها الكلاب والابل والغزلان والذئاب والضباع.

كان قد أخذ يتنقل بين أحيائها سعيداً بما يرى، بالأغاني والرقص والصراخ والعواء. كان يرى الأغنام تتصايح في شرفاتها الايطالية، والخيول تتجول في ضواحيها حرة بلا عربات والإبل تزاحم السيارات. كان قد عاد إلى بيت السنيورة الذي لم يعد بيتها فقد تم طردها وترحيلها إلى روما بقرار حكومي وآلت كل أملاكها له. لقد صار البيت (فيلا سعيد) وكذلك المزرعة. صارت غرفة الأطفال التي ظلت بلا أطفال لعقود غرفة (حسن وعائشة) ابنا سالمة الذين صارا ابنيه، وعلقوا صورته على الجدار وهو يهتف بدل صورة الايطالي المتجهم. كان يظهر في الصورة وهو يمسك بعلم البلاد الجديد ناظراً إلى البعيد ورأسه يرتفع قليلاً وفمه يتفجر بالعواء والصراخ ويظهر وراءه آلاف السعداء وهم يصرخون.

هو لم ير السنيورة وهي تغادر ليبيا مطرودة، لم يودعها، عاد إلى بيتها الذي صار بيته، وتفقد مزرعتها التي صارت مزرعته، وادخل سالمة إلى غرفة نومها التي صارت غرفة زواجه الليبي التام. كان كل شيء يحدث سريعاً، هكذا في طرفة عين، ينقلب كل شيء رأساً على عقب، بقرار من قيادة الحكومة الجديدة، وبكلمات مذيع تخرج من راديو السنيورة الذي لم يصمت بعد طردها بل تحول إلى بث الأناشيد والبيانات عبر الإذاعة الليبية. إن كل شيء يتحول، يعود إلى أهله الأصليين كما يقول الراديو.

كانت سالمة ملاكه الجديد، تقف كل ليلة قرب السرير، تحاول نزع رداءها بصعوبة، فعقدة حزامه تتعقد أكثر وهي تحاول فكها، وكان شعرها يحجب وجهها ويحيل بين عينيها واصابعها، كانت تفعل ذلك متوترة على غير عادتها. أما هو فكان يستلقي على السرير متأملاً ارتباكها، لكأنها تنزع هذا الرداء عنها للمرة الأولى، وبدت له في تلك اللحظات (الغزالة) التي عرفها وهي تحاول نزع الصلصال الذي كبلها وسمرها وسط حديقة الفندق الكبير لخمسين من السنوات، أو لكأنها تعاني ما عانى ليلة مسخه، أمام نفس المرآة وبنفس الغرفة.

كان ذلك يتكرر كل ليلة دون أن يحاول مساعدتها في التخلص من ذلك الرداء الذي يعيقها، بل ظل يستلقي متأملاً لها كما كانت تفعل معه السنيورة ويتذكر لحظات جلوسه أمام تمثال الغزالة والحسناء وهو يسمع أناتها تحت الصلصال. هل لا زالت الغزالة تئن حتى بعد أن تكسر الصلصال وانطلقت عبر شعاب ووديان طرابلس؟

قالت له أنها لم تتخيل أن تسكن بيت السنيورة وأن تصير سيدته، ورفعت يديها شاكرة السماء والثورة التي أعادت الحقوق لأهلها. لم يفهم ما قالت وتابع تأمله لها وهي تصارع الرداء كي تنزعه عن جسدها.

لم يكن يرغب في شيء إلا الاستلقاء وتأمل غزالته سالمة وهي تحاول أن تكون (سنيورة) البيت والرجل. كانت ترتدي فساتين السنيورة التي لم تكن تناسبها، وتضع زينة فاقعة وتتعثر في الكعب العالي، ولكن إصرارها على أن تتحول كان قوياً. زرعت ورداً بالحديقة وواصلت رعايتها لها كما كانت تفعل السنيورة. كان الورد يتفتح من حولها وهي تقف وسطه مزهوة.

جعله الورد يحس بذلك التواصل والاستمرار بين السنيورة وسالمة، لكأن سالمة كانت تريد حقاً أن تتحول إلى سنيوره أو لكأن السنيورة كانت ورغم غيابها تحول سالمة إلى سنيوره.

كان الورد قد غطى الحديقة كلها، صارت اشبه ببسط ربيع (ترهونة) بل اجمل بكثير، فهنا بدا الورد اكثر توهجاً واشراقاً وأكثر تنسيقاً. كانت سالمة وهي تقف وسط تلك البسط تبدو غزالة حقيقية، تقفز إلى الماء بردائها الخفيف، يراقبها من الشباك الذي راقبته منه السنيورة أول مرة ويشير لها أن تعالي بعد أن يقترب من الحوض. تخرج من الماء وتقبل نحوه والماء يتقاطر منها والرداء يلتصق بجسدها فتبدو له حورية خرجت من البحر، تقطر ماءاً وجمالاً. يفك حزام ردائها لتجثو على ركبتيها وتفك ضفائر شعرها، تحني رأسها نحو بساط الورد فيتدلى الشعر المبلل ويتقاطر ماؤه على الورد. هو لم ير هذا من قبل، أو بالاحرى لم يستمتع بالنظر كما كان يحس في تلك اللحظات. كان يستمتع بالشم، بروائح الاعشاب والحليب التي كانت تفوح منها، ثم بالطلوق الذي كانت تبخر به غرفة النوم كل ليلة، البخور جعل بصره يستيقظ رويداً رويداً. كان الغبش قد لون حياته الأولى مع سالمة. كانت تقوده روائح براريها النفاذة الدبقة إلى ذلك الغبش الذي ينشره البخور حولها، كان يراها عبر الغبش، أما الآن ووسط هذه الورود فإنها تظهر له جلية، غزالة وحسناء. إنه الآن يمتلك الغزالة والحسناء دفعة واحدة.

في تلك الأثناء كانت طرابلس تضج بالأصوات. كان الجميع يصرخون في حماس، هو لا يفهم ذلك الصراخ ولكنه احبه، كان بإمكانه أن يصرخ ويعوي كيفما يشاء وحيثما يشاء، ولم تمر شهور إلا وهو معروف في طرابلس كلها. صار من أهم الأصوات المجلجلة وسط الميادين والساحات بل وظهرت صوره وهو يعوي رافعا رأسه عالياً في الجرائد. كان يكتب تاريخاً جديداً له، وكان وعلى ما يبدو يكتب تاريخاً جديداً لطرابلس، فالكل صار يعرفه. اختفى ذلك الشاب المفتول العضلات الذي كان يصرخ في الشوارع «روما!» واحتل على ما يبدو هو مكانه، صراخه لم يكن مفهوماً ولكنه كان عالياً وحماسياً.

كانت سالمة تتورد ببيته وتولول بالزغاريد في المسيرات دون أن تنسى الاهتمام بالحديقة وطهي (السباقيتي) ولبس فساتين السنيورة – التي لم تكن تناسبها – في البيت. لم تكن ترتديها حين تريد الخروج إلى المسيرات، كانت تلف رداءها الليبي حول خصرها وتربطه بالحزام وتشده فوق صدرها بمشبكين وأحياناً تشده إلى كتفها الايمن بعقدة صغيرة. كان يحس

بها في المسيرات جزءاً منه، من جسده. كان يشم روائح العشب والحليب تفوح منها وهي تتقاطر عرقاً فيعوي عالياً، لتصرخ وراءه الجموع، وتولول زغاريدها.

مرة وبعد أن عادا من إحدى المسيرات المؤيدة للثورة قالت له: هل تحبني سنيوره ام غزالة؟ هو كان يجد الاثنتين فيها، فهي تتقلب بين الهيئتين، بين الغزالة والحسناء أو بالاحرى بين الغزالة والسنيورة. كانت وهي تركض وسط المسيرات غزالة حقيقية ثم وهي تصارع رداءها لتفك عقدته في غرفة النوم تعاني ما عانى من آلام التحول والمسخ ليلة كوابيسه الأولى، لتصحو وهي تستلقي إلى جواره وتجد نفسها سنيوره، تنهض وتقف أمام المرآة تتأمل ما أصابها من تحول و(روب السنيورة الوردي) يضم جسدها. ينهض من السرير ويقف خلفها، يتحسسها تحت الروب، فيجدها حقاً غزالة وسنيوره، لم تكن غزالة كما عرف الغزالات وطاردها كذئب في البراري ولا كانت سنيوره كتلك التي مسخته من كلب إلى رجل بليلة واحدة، كانت كما كان، كائناً جديداً يتحول إلى ما لم يكن من قبل.

كما انتقلت سالمة من أكواخ المتحولين إلى فيلا السنيورة، انتقل غالبية سكان تلك الزرائب والأكواخ إلى الشقق التي بناها البولنديون والمصريون. كانوا حقاً يتحولون إلى حياة جديدة كما وعدتهم قيادة الثورة وإذاعتها، فهاهم في شقق جديدة بها غرف للنوم وأخرى للجلوس ومطابخ وحمامات وكهرباء ومياه. إن كل امرأة من نساء الأكواخ تتحول إلى سنيوره كما كان يرى ويحس. كانت وعود ميكروفونات وزارة الإعلام الملكية تتحقق حقاً، وكانت عوائد النفط تغمر الجميع. كان غالبية أبناء تلك الشقق قد انخرط في الجيش والأمن وصاروا حراساً للوطن كما كانوا يسمونهم.

بعض عمال المزرعة التي صارت مزرعته تركوا العمل وانخرطوا في الجيش والأمن أيضاً ولم يبق منهم إلا بعض كبار السن الذين واصلوا عملهم. كان قد ترك المزرعة ولم يعد يذهب للإشراف على عمالها كل يوم كما كان يفعل، فالمسيرات والاجتماعات والمؤتمرات اخذت كل وقته. كان فقط يمر مروراً سريعاً مرة أو مرتين في الاسبوع، وانتبه بعد فترة إلى أن المزرعة ستضيع إن استمر الأمر على هذا الحال لذا اختار (مختار الباهي) احد رجال البوليس المتقاعدين وعينه مشرفاً ومديراً للمزرعة وجلب عمالاً مصريين للعمل بدل الليبيين الذين التحقوا بالأمن والجيش.

كان الباهي أحد رجال الأفندي إسماعيل. كان وكما الأفندي إسماعيل رجل بوليس حقيقي، تربى في عهد الإنجليز بوليساً وواصل العمل في المملكة ضابطاً قبل أن يتقاعد.

الباهي الذي جاوز الستين من عمره ظل يحافظ على تماسك جسده وقوته واناقته أيضاً. لم يتنازل عن ربطة عنقه ولا حلاقة وجهه كل صباح والوصول إلى عمله الجديد عند الثامنة صباحاً، حتى أن من لا يعرفه يعتقد جازماً بأنه صاحب المزرعة وليس موظفاً فيها.

كان يقوم بجولته الصباحية بالمزرعة ويتفقد بدقة كل التفاصيل ويوزع العمال على الأعمال اليومية ثم يتوجه إلى مكتبه وينهمك في الأوراق والفواتير والاتصالات. كان دقيقاً في كل شيء، وبدا سعيداً بعمله الجديد، فهو وكما قال له مرة: لم

اجرب العمل بمكان جميل كهذا، لم اعرف الشجر والزرع والحصاد وجني الغلال، كنت حبيس مراكز بوليس متجهمة وقاسية كالمقابر، لم اشعر بهذا الهدوء وهذا السلام من قبل.

بفضل الباهي ظلت المزرعة تعمل كما كانت من قبل، وظل إنتاجها من الخضروات والزيت والعنب لا ينقطع عن السوق الطرابلسي الذي صار نهماً لكل شيء، فسكان الزرائب والاكواخ وبعد أن سكنوا الشقق والعمارات وزادت مرتباتهم بدأوا يشترون الخضروات والفواكه واللحم كل يوم، ولم يعد اطفالهم يقلبون مكبات الزبالة بحثاً عن الأكل كما ظلوا يفعلون لسنوات. كان غالبهم قد تحول إلى الجيش والأمن وصاروا يتقاضون مرتبات منتظمة وممتازة. كان مصباح ليبيا السحري قد اخرج مارده الوردي (النفط) لليبيين مردداً لهم «شبيك لبيك» واخذت اعطياته تتساقط عليهم فاكهة ولحماً وخدماً من كل بقاع الأرض. صار كل شيء ورديا، هذا ما كان يردده بطلنا في داخله، واحس أن سالمة زوجته الليبية الأولى كانت حقاً ملاكه الجديد ونقلته من جحيم وعذابات التحول التي عاناها لسنوات إلى جنان الورد. فما أن نثرت بذور الورد في حديقته حتى ازهر كيانه الجديد، بهجة وعواءاً شجياً، لم يكن يتحول وحده كما كان، إنه يتحول مع الجميع.

كانت أسراب الجنود والضباط تملأ شوارع وميادين المدينة أناقة وقوة وشباباً عند الصباح الباكر وهم ذاهبون إلى معسكراتهم التي كثرت. كان الجميع يحيّهم ويترك لهم الدور في كل الطوابير والممرات والباصات. كان الفرن الطرابلسي قد هدأت ناره وأمطرته السماء حتى تحلل طينه وذاب، ونبتت من ركامه اعشاب جديدة ازهرت سريعا، ودبت وسط تلك الأعشاب وتحتها حياة جديدة. هو لا يرى تلك الكائنات الحية ولكنه يسمعها تدب ويسمع ضجيجها في الليل. كانت سالمة تتورد بين ذراعيه على نحو مبهر، ويلون الخمري كل خلايا جسدها فتسكره ويرى نهديها وهما يشبان في وجهه كوعلين شرسين، ويسمع ذلك الدبيب وقد صار ضجيجاً وعواء. كانت تتحول بين ذراعيه إلى براري وأودية وشعاب تعج بالكائنات التي ظل يسمع دبيبها ولا يراها، ويغرق راقصاً في مهرجانها الوحشي.

قالت له سالمة: «إن وادي ترغلات يهيج في الشتاء ويكتسح سيله كل شيء حتى مصبه في وادي كعام، حيث يزهر كل شيء حتى الصبار.» كانت لاشك تهذي وهي بين ذراعيه وكنت أنا صاحب هذه الأمثولة أقف منذهلاً وعاجزاً ومصعوقاً أمام نهدين منفلتين وسط لبدة الكبرى، غير بعيد عن مصب (وادي كعام)، الذي كان نهراً يسقي ريف عاصمة الترييوليتانيا هذه. كان نهر (كينوبس) أو (وادي كعام) وحين يفيض يغطي أجزاءاً كبيرة من الريف اللبداوي ويغرق (فيلات) واستراحات أغنيائها.

ولكن الفيلات كانت تعود سريعاً كما كانت بعد الفيضان بقليل بل وتزدهر مزارع لبدة الكبرى إثر كل فيضان لنهر كينوبس.

الفيضان المرعب بالنسبة للبدة الكبرى، كان تدفق سكان التخوم من البدو وتجار العبور من حين لآخر ونهب وتدمير كل شيء يطاله فيضانهم المريع. كانت لبدة الكبرى تعاني ورغم حياتها الرغدة كوابيس ذلك الطوفان، فرغم الاتفاقيات والعهود التي يوقعها حكام لبدة الرومان مع تلك التخوم إلا أنها ظلت تنهار كل مرة، وتهاجم جيوش تلك التخوم المدينة

وتعبث بريفها ومزارعها وأحياناً تصل إلى سوقها الكبير وتعبث به، بل وتعلق رأس ربها الثور (قرزيل) على جدران معابدها الرومانية.

كانت السنيورة قد أخذت بطلنا مرة في رحلة إلى (لبتس ماجنا) كما كانت تسميها. كان معها وحيداً بين الطليان، وقالت له مفاخرة «اجدادي كانوا هنا وبنوا كل هذا»، هو لم يفهم تماماً ما كانت تقول ولكنه ود أن يسألها «كيف استطاعوا رفع هذا الحجر الضخم إلى هذا الارتفاع، هل كانوا عمالقة أو آلهة؟» ولكنه لم يفعل فقد جرته من يده إلى حمامات هادريان حيث لا زال الماء يتدفق كما كان منذ عشرين قرن مضت، وحيث أحس بدبيب آلاف المتحولين مثله عبر تلك القرون من السنين وهم يغطسون في أحواض التحول قبله، وحيث كانت الفاتنات الرومانيات يقفن منتظرات عبورهم وتحولهم. كان الدبيب يتصاعد ويتحول إلى ضجيج آلام مكبوتة. كانت الكلاب والغزلان والبشر تغطس هناك وتخرج كائنات اخرى كما خرج وربما ظل بعضها يئن كما الغزالة والحسناء بالنافورة الطرابلسية.

بنات البسيلي لم يستخدمن التغطيس في الماء ليعمدن كلاب العصر المطير بشراً تائها يسعى وسط جنان تصحرت، لم يقدن تلك الكلاب الممسوخة إلى حمامات هادريان أو إلى حوض الماء الساخن بحمام السنيورة الطرابلسي ولا إلى نافورة الغزالة والحسناء كما فعل الرومان عبر كل العصور. كان الماء اهم عناصر التحويل لدى الرومانيات، أما فاتنات البسيلي وسالمة فكان التحويل على الجاف، كان تحويل مابعد التصحر.

ومضى وعبر ممرات لبدة الكبرى خلفها وهو يتأمل جسدها من الخلف، اكتافها الصغيرة ثم خصرها واخيراً اردافها الرومانية التي بدت له في تلك اللحظات تلتين من الرمال اللينة الناعمة رغم لون الفستان الازرق البحري. كانت السنيورة وعبر ممرات لبدة الكبرى في ذلك اليوم الجاف والحار تبدو حقاً حسناء توشك أن تمسخ غزالة، كانت توشك أن تخرج لسانها وتلهث وكان زغب كتفيها وذراعيها وساقيها يلمع تحت اشعة شمس لبدة الحارقة ذاك اليوم لتبدو له زهرة صبار محمرة ملتهبة تكسوها شقرة شوكها. كان بإمكان شمس لبدة أن تضع السنيورة على حافة المسخ والتحول. كانت الحسناء تقاوم مسخها غزالة تتوه في صحراء ليبيا الكبرى التي ظلت تحاصر لبدة الكبرى لقرون متتالية حتى احالتها اطلالاً وإن رمم الطليان ماتبقى منها، وكان شعر سالمة يتقاطر ماءاً في حديقة السنيورة على الورد، بعد أن غادرت حوض السباحة وحلت ضفائرها الليبية القاسية وكان جسدها يبدو فاتناً تحت ردائها الخفيف، بدت تضاريسه تلالاً ووديانا تجري عبرها السيول وتعوي عبر تلك التضاريس ذئاب وكلاب الصحراء الليبية الكبرى، وكنت أنا كاتب هذه الأمثولة اجرّ بطليها إلى لبدة الكبرى حيث شهرت في وجهي وفي متناول فمي تلك الغزالة الجبلية تهدين همجيين لأتسمر شاخصاً ومرتعباً مني ومن بوليس السياحة، ربما كانت تفعل معي ما فعلت تلك الأرملة الطرابلسية بأبوليوس، حين اوقفت رحلته نحو الإسكندرية ومكتبتها الذائعة الصيت إذ ذاك واغرقته في فرن طرابلس المتقد منذ عشرين قرن مضت، حين كانت (اويا) ورغم قوس تمجيد ماركوس اوريليوس الحكيم الذي شيدته تمجيداً للحكمة تهذي إثر حمى (الليبيتشيو) وتتلقى ضربات البدو والمزارعين من سكان التخوم. كان سلفنا الصالح أبوليوس قد وقع في الفخ الطرابلسي وسحرته تلك الأرملة الطروب فمضى خلفها

مسحوراً تجره بطوق ياسمين طرابلسي مخدراً، بالضبط كما جر (قنقيط) بنات البسيلي كلاب العصر المطير إلى كهوف الاكاكوس رغم اعتراض المؤرخين على هذه الصياغة (الأليغورية) للتاريخ وكما جرته روائح وبخور سالمة إلى مصيره الجديد وكما جرت رائحة الورد (لوكيوس) إلى مسخه الثاني وإلى معبد أوزوريس. إن الرائحة تجر الجميع إلى مصائر جديدة من مصائرهم المتعددة والمتناقضة، ورغم كل ذلك فإن بطلنا كان يعيش مرحلة وردية متوازياً وكما اريد له مع لوكيوس (حمار سلفنا أبوليوس) وهو يلهث بحثاً عن الورد ليعود من مسخه كما كان (رجلاً بين الرجال).

كلبي الوردي

الفصل السابق من هذه الامثولة لم يكن ورديا كما اردت له أن يكون، إنني اتعمد التوازي مع نص (حمار) سلفنا أبوليوس ومصائره، فالورد لم يكن عنصراً هاماً في حياة الليبيين. كانوا يتركون للمطر وللتراب مصير الزهر والورد، ولو استثنينا (طرابلس ودرنة) لما وجدنا احتفاءاً ليبياً بالزهر والورد، فقط الياسمين والقرنفل عمرا إرث الطرابلسيين والدراونه بالزهر ولولاهما لخلا إرثنا من الزهر والورد.

ولكن كان ثمة زهرة واحدة، وكي لا افرغ إرثنا من الورد والزهر، عشقها الليبيون وتغزلوا بها، إنها (زهرة البوقرعون) أو (شقائق النعمان) كما يسميها الأدباء العرب، وهي زهرة حمراء فاتنة حقاً تتمايل سلوى وسط حقول الشعير الخضراء كل ربيع، تبسط جمالها على كل الحقول الليبية كل ربيع، يقطفها الرعاة الليبيون لحبيباتهم ويشبهون خدودهن وقدودهن بها في اشعارهم واغانيهم. كانت تظهر على مسارح ودياتهم وسهولهم كحورية ولدت من تراب الأرض ومطر السماء كل ربيع، تتمايل راقصة حمراء وسط اخضر الشعير والاعشاب البرية الاخرى، وتتشبه بها البنات في تمايلها واحمرارها لتتناثر من ارداتهن عطور الفتنة والخصب. كان بطلنا قد عرف زهرة البوقرعون قبل مسخه دون أن يلقي بالاً لجمالها وركض عبر الحقول وهي تتراقص من حوله، ولكن سالمة اعادتها إليه، فلم تعرف ذاكرته صورة تشبه سالمة إلا صورة تلك الزهرة وتمايلها. كانت وهي تتنقل بين زهور وورد حديقته تبدو زهرة بوقرعون حقيقية، حارة ولعوب.

هو لم يعاني ما عانى (لوكيوس) المسكين وهو يطارد الورد كي يخلع عن جسده المسخ الذي اصابه، هو وجد نفسه هكذا وسط الورد، جرته سالمة إلى حديقة الورد، ولكنه لم يعد، ولم ينسلخ عن مسخه، ظل رجلاً، ظل زوجاً لها، هي فقط طردت ساحرته الأولى التي مسخته من كلب إلى كائن بشري يلهث، ولكنها احيّت فيه كل الاحاسيس التي خبرها قبل المسخ، أطلقت عقيرته بالعواء، ونثرت من حوله عطور الوديان بل وأحالت الفرن الطرابلسي إلى براريه التي غادرها، وصار بإمكانه أن يركض في وديان وشعاب طرابلس ويعوي كيفما يشاء.

هو لم يطارد الورد كما طارده بطل أبوليوس، ولم يره خلاصاً كما فعل لوكيوس المسكين عبر فصول تلك الرواية الرائدة. إنه ورغم هذا التوازي الذي افرضه عليه أنا سارد هذه الأمثولة ظل يختلف جوهرياً عن لوكيوس، بالضبط كإختلافه مع موظف (كافكا) ومع (وحش الحسناء) حيث لا يمسخ الكيان كاملاً بل يظل العقل والمشاعر والذكريات ولا يطال المسخ إلا الجسد وشكله، ذاك يزيد عذاب الممسوخ ولا شك.

في طرابلس القرن الواحد والعشرين يبدو المسخ أكثر اكتمالاً، فلا يبقى للممسوخ من كيانه الأول إلا بعض الأحاسيس والذكريات التي يعتمها الغبش والبخور، والاهم، لا يبدو للممسوخ أملاً في العودة كما كان. يبدو المسخ الليبي

هنا قيامة تامة وعلى هذا النحو يبدو فصل الورد هذا دخيلاً، بالاحرى حشواً فرضه هذا التناظر مع مسخ أبوليوس، قد اشطبه من هذه النسخة إن وجدت مزاجاً لمراجعتها. أو ربما سأتركه (كعب اخيل) آخر لهذا السرد الأليغوري السائل.

جنون كينوبس

كينوبس هو الاسم القديم لوادي كعام حين كان نهراً ينبع من مرتفعات ورفلة وترهونة ويصب قرب لبدة الكبرى. سالمة كانت ابنة أحد منابعه، (وادي ترغلات)، ولدت هناك وكبرت وتزوجت وأنجبت ثم رحل زوجها وتركها لترغلات والذئاب، انتظرته طويلاً ولم يعد. كان وقبل الرحيل قد قال لها أن غيابه لن يطول. قال لها إنه ذاهب إلى طرابلس حيث بإمكانه أن يعمل مع الإنجليز أو الطليان أو الامريكان ليعود لهم بالمال والملابس والحلوى ولكنه لم يعد. انتظرته سنة كاملة ولم يعد، جاعت وصارعت الذئاب والكلاب ولم يعد، نبشت الأرض بحثاً عن الأكل، نصبت الفخاخ للارانب ولم يعد، هج الجميع نحو الساحل وطرابلس والانجليز والامريكان والطليان وظلت وحيدة في (ترغلات) الموحش، ثم هجت وراء الهاجين حتى وصلت طرابلس ولم تجده.

في طرابلس عرفت حياة الكلاب كما كانت تسميها، سكنت زرائب الهاجين وأمضت أيامها فيها تركض من مكان لآخر بحثاً عن خبز ابنيها الصغيرين، ضربت صغيرها لأول مرة حين وجدته يقلب مكب زبالة بحثاً عن الخبز، بدا لها ذلك امراً مهيناً وبكت، بل وفكرت في الرجوع إلى (وادي ترغلات) لتموت هناك بالجوع والوحشة ولكنها ما لبثت أن تراجعت بعد أن فكرت في الفرق بين نبش الأرض هناك بحثاً عن أي شيء للأكل وتقليب الزبالة الطرابلسية، لا فرق قالت في داخلها، بل هناك تنبش ولا تجد شيئاً أما هنا فحتماً تجد بعض ما يؤكل.

كانت طرابلس ورغم قسوتها كريمة وسخية على الفقراء أمثالها، فلا يعدم فيها جائع طريقة للحصول على كسرة خبز وإن كان في مكبات بيوت أغنيائها. كان بإمكانها رغم كل شيء أن تتدبر امرها وامر طفليها في طرابلس. كانت ترى الكلاب الضالة وهي تفتش عن طعامها وسط المكبات وامام البيوت وفي الشوارع، ورغم إحساسها بالقهر إلا أنها تعلمت منها أن الحياة يمكن أن تعاش بهكذا طريقة إلى حين، ولا شك أنها يمكن أن تتحسن بالجهد والمثابرة. بدأت تخرج من الصباح الباكر إلى الشوارع بحثاً عن عمل، أياً كان، وكان طفلاها يخرجان بحثاً عن بقايا الطعام في المكبات القريبة، حتى اكتشفت طريقة توفر لها الاكل كل يوم. اخذت تمر على بيوت الأغنياء وتطلب منهم بقايا اكلهم، كانت تقول لهم إن رمي الطعام في الزبالة حرام وافضل لو منح للفقراء. كانت تختم كلامها بأن في ذلك أجر ونظافة، كانت مقنعة لغالبية البيوت وصارت تجد الاكل نظيفاً، بل زودتها بعض ربات البيوت بصحون نظيفة لحفظ الاكل حتى وصوله للفقراء. صارت تعود إلى زريبتها بصحون كثيرة ومتنوعة من الاكل كل يوم، يأكل أطفالها طعاماً ممتازاً وتوزع الباقي على الجيران من فقراء الزرائب.

في طرابلس ورغم التعب والكد من أجل الخبز إلا أنها ليست موحشة. طرابلس يملؤها الانس، فحيثما مضيت تجد البشر من حولك، لا يعرفك أحد ولا تعرف أحداً، ولكنهم هنا قربك رغم كل شيء وحولك، لا وحشة في طرابلس عكس

(ترغلات) الموحش حيث قد تمضي شهراً كاملاً لا ترى فيه إنساناً حتى عن بعد.

صارت الكثير من الوجوه مألوفة بالنسبة لها، تقابلهم هنا وهناك، نساء مثلها ورجال واطفال، بشر كثيرون صارت تعرفهم ويعرفونها، تحيّهم ويردون تحيتها. لم تهجر الوحشة ودیانها رغم هجيج الجميع منها، ظلت بعيدة عن طرابلس وظل الانس الطرابلسي رغم كل المصاعب يرف بجناحيه على رؤوس قاطنيها جميعاً، إنهم يبتسمون ويحيون ولا يسألونك من تكون.

لا شيء ظل يخيفها في طرابلس ويخيف سكان الأكواخ والزرائب إلا جنون كينوبس، الذي ظل يخيف لبدة الكبرى رغم جبروتها وقوتها لآلاف السنين. كانت السيول التي تضرب طرابلس من حين لآخر الغول الذي ظلت وجيرانها ينتظرونه كل شتاء مرتعبين، كان قد جرف كل شيء، الأكواخ والزرائب والمواشي، بل والعجائز والأطفال وألقى بهم في البحر لمرات عديدة، كان يغرق شوارع وسط المدينة وميدان الشهداء.

كانت حكايات من سكنوا الأكواخ قبلها لا تتوقف عن سرد قصص الموت والرعب التي عاشوها مع كل نوبة جنون، كان (وادي المجينين) يضرب كل شيء ويدمره ويكنسه إلى البحر، كان يغرق المتاجر والبيوت والعمارات ودور السينما ومراكز البوليس وكل شيء في طريقه، حتى يصل شارعه (شارع الوادي) كما يسميه الناس وشارع عمرو بن العاص كما تسميه الدولة، ربما كان طريق عمرو بن العاص نحو السرايا الحمراء وفتح طرابلس.

سالمة لم تشهد أياً من نوبات جنون (وادي المجينين) – كينوبس طرابلس – سنوات بقائها فيها، ظل هادئاً وظلت سيوله تتوقف عند اطراف المدينة حيث مزارع البرتقال والزيتون، لا شيء كان يصل إلى أحياء الأكواخ والزرائب إلا الهاجون الجدد الذين ظلوا يتقاطرون على طرابلس من الوديان والشعاب والبراري بحثاً عن حياة جديدة وعمل جديد. كانوا يتدفقون عبر شوارعها وساحاتها كل صباح، بعضهم يلتحق بمعسكرات الامريكان وبعضهم بالميناء، بعضهم يتجند في البوليس أو الجيش، بعضهم يلتحق بعمال النظافة بالبلدية، بعضهم يتحولون إلى عمال بناء.

كانت تراهم وهم يتدفقون نحو المدينة من أكواخهم كل صباح، كانوا يبدون حقاً سيلا يغمر شوارع العاصمة أو ربما كانوا جيشاً يتقدم عبر طريق الفتح وشارع الوادي أو (عمرو بن العاص)، إنهم يتبعون طريق السيل الذي ظل وعبر تاريخ طويل يكتسح العاصمة من عقد لآخر.

بعد عمارات حي الأكواخ كان سد وادي المجينين مثار مفخرة راديو الثورة وتلفزيونها، فقد شيد ليصد جنون سيول (وادي المجينين) عن طرابلس وعن حي الأكواخ خاصة، الذي سكن عماراته وشققه الهاجون من منابع تلك السيول. كان بمثابة إشارة لتوقف سيول الوديان ليستقر ويهدأ ويتوطن الهاجون إليها.

جنون كينوبس كما اسميته انا مؤلف هذه الأليغوريا، ليس تسمية أليغورية رغم هذا السياق فقد ظل وصفاً حقيقياً لعلاقة مصبات الوديان بمنابعها، لمدن جنوب المتوسط بتخومها. ظل وصفاً حقيقياً لتلك النوبات من الجنون التي تنتاب

اودية التخوم عبر التاريخ الليبي الطويل وذلك الرعب الذي تسببه لمصباتها التي تشكلت واحات صغيرة وصار بعضها مدنا كبيرة.

لبدة الكبرى كما كانت تسمى عبر عصور طويلة من التاريخ والتي كانت عاصمة التريبوليتانيا، والتي حكمت إمبراطورية روما عبر ابنها سبتموس سيفيروس، انبنى مجدها على تلك الهدن التي عقدتها مع تلك التخوم وتلك المنابع، فلقد مدها كينوبس (نهرها الغريب) بالخضروات والفواكه ومدتها التخوم بالقمح والشعير والحلفاء، ومدتها مرتفعات (ربات الجمال) بترهونة ومسلاتة بزيت الزيتون الذي ظلت سواقيه تجري من تلك المرتفعات باتجاه ميناء لبدة واسواقها والذي كان يضيء مسارح ومعابد روما وكل ذلك كان محمياً بفرقة اوغسطا المحاربة والتي لم تكن حربها ضد قطاع طرق التخوم فقط، بل وضد جنون كينوبس المدمر الذي كانت تخشاه لبدة ربما أكثر من خشيتها ثورات سكان منابعه وتخومها فبنت السدود وسواقي تصريف السيول وتغير مجراها. كانت فرقة اوغسطا المتمركزة بورفلة وترهونة سد لبدة الكبرى ضد جنون كينوبس.

كينوبس الذي روضته فرقة اوغسطا وجعلته يتدفق بسلاسة إلى مصبه قرب زليطن وأبعدت شبح سيوله المدمرة عن لبدة الكبرى ومزارعها وفيلات اغنيائها الريفية وبعد عقود من ذلك التدفق المثمر والهادىء عاوده جنونه إثر ما أصاب التخوم من ثورات وتمرد ضد لبدة الكبرى وإثر هجوم الجرمنت وحلفائهم من سكان التخوم على لبدة، ضرب سدود لبدة ومزارعها وسواقي الزيت لتغرق معابد ومسارح روما في الظلام، وتحول جنود لبدة من بدو التخوم من قوتها الضاربة إلى عدوها المدمر، بعد أن كان سبتموس سيفيروس قد وصل بهم إلى مدن أوروبا ورقصوا هناك وعلى أسوارها رقصة حروبهم (الكاسكا)، وصل بهم جنون كينوبس إلى أسوار لبدة ورقصوا (كاسكا) على أطلالها.

بعد خراب لبدة بسيول كينوبس من الفيضانات ومقاتلي التخوم هدأ كينوبس وتحول مع الزمن وزحف الجفاف والصحراء إلى واد مثل كل الاودية الاخرى، يسيل مرة في العام دون أن يجد في طريقه ما يجتاح، فلقد تحولت مزارع ريف لبدة إلى أراض مهجورة قاحلة ولم تعد تنمو على ضفافه أشجار الزيتون والعنب واللوز ولا حتى الحلفاء، ولكنه ظل يرسل سيل الهاجين من التخوم والجنوب إلى مدن الساحل، بحثاً عن الماء ولقمة العيش.

حين غادرت سالمة أحد منابع كينوبس –وادي ترغلات– لم تترك خلفها احداً كما كانت تظن، لقد غادر الجميع إلى طرابلس وزليطن ومصراتة وحتى بنغازي، ووجدتهم حين وصلت إلى طرابلس. كانوا من كل الوديان ومن كل التخوم، كانوا يعيدون سيرة أسلافهم ونهرهم (كينوبس) ونوبات جنونه. كانوا في طرابلس يسمون جنون (كينوبس) بوادي (المجينين)، صغر لا شك ولكنه ظل يطارد بديلة لبدة الكبرى، طرابلس الحديثة. ربما انقسمت قبيلة (هوارة) وتباعدت انسابها بين بر وبحر ولكن نهرها البشري ظل يتدفق بإتجاه الشمال ومدنه كما كان لآلاف السنين.

حاول الطليان والإنجليز والمملكة والاستقلال أن يعيدوا سيرة فرقة اوغسطا، ولكنهم لم ينجحوا تماماً، فقد ظلت سيول (المجينين) تضرب طرابلس من حين لآخر، وظل سيلها البشري يتدفق إلى العاصمة دونما انقطاع.

كان جنون كينوبس قد تشتت بين الوديان وأضحى نوبات متباعدة وقوية ومدمرة كما كان سلفها كينوبس، ولكن تدفق سكان تخومه على طرابلس ومدن الساحل تواصل بوتيرة متصاعدة.

طرابلس التي أخذت مكان لبدة الكبرى في كل شيء، لم تعرف كما لبدة الكبرى جنون كينوبس جيداً، كانت تحصن نفسها بأسوارها العالية وقلعتها المهيبة وتغلق ابوابها ضد كل السيول، بل إن السيول وهجمات التخوم لم تشكل في يوم من الايام خطراً كبيراً بالنسبة لحكامها المتعاقبين. كانت تخاف البحر وغزاة الشمال، ولم يشكل الجنوب أياً من مخاوفها، وظل جنودها يخرجون من حين لآخر في حملات روتينية لمعاقبة البدو وسكان التخوم إن تلكأوا في دفع الضرائب لخزانتها .

الايطاليون غيروا كل شيء في طرابلس، حولوها إلى مدينة اوروبية تماماً بكل ما فيها، حولوها إلى خزان ممتاز لكل الهاجين من التخوم والجنوب، كانوا يحولونهم إلى جنود ورجال بوليس وعمال زراعة، ربما لم تفعل لبدة الكبرى ذلك بشكل ممتاز كما فعل الطليان في طرابلس، ليتسع ذلك أكثر بعد الاستقلال وبداية عهد المملكة، فالإيطاليون كانوا ورثة حقيقين لفرقة اوغسطا والمملكة ورثت ايطاليا.

ولكن وكي لا احول هذا المشروع القصصي إلى مقالات عن التاريخ والتغير الاجتماعي، دعوني أعود إلى أبطال وحواديث هذه (الامثولة) التائهة، وبالتحديد اريد العودة إلى (ليبيتشيو) أو (القبلي) ذلك الريح الليبي الحار الذي ظل يضرب طرابلس وحتى جنوب ايطاليا والذي أطلقت اسمه الارملة الايطالية على كلبنا العجيب.

الليبيتشيو أو القبلي ظل يهدد مدن وواحات ليبيا لآلاف السنين ولا يخشى الليبيون اكثر من الغزاة إلا القبلي. يذكر هيرودوت حكاية محاربي الريح من قبيلة البسيلي بسرت، لقد ظل الليبيتشيو وعبر التاريخ يجفف زرعهم وضرعهم، فكم من واحة مزدهرة غناء حولها القبلي إلى أرض قاحلة ثم ابتلعتها رماله، كم من (اطلنطا) غرقت و لم يتبق من ذكراها إلا كلمة أو بيت شعر أو ربما ايقاع اغنية يختنق، والاهم في سردنا هذا أن بعض الناجين من ذلك الطوفان المتكرر عبر التاريخ كانوا يصلون إلى واحات الشمال هاربين تطاردهم ألسنة رماله الهائجة أو غزاة هائجين تغطيهم سحب غباره الخانقة، ظلوا يتدفقون على لبدة الكبرى وصبراتة وطرابلس رجالاً ونساء واطفالاً، غزلاناً وضباعاً وذئاباً وكلاباً وحميراً، ظل ليبيتشيو ورغم كل شيء يقذف دائماً بسفن الناجين على جودي واحات المتوسط الليبية وعلى متنها من كل زوجين صحراويين اثنين.

أنا هنا سارد هذه الامثولة لست إلا أحد الناجين من إحدى موجات الطوفان المتكررة، بالضبط كما كل ابطال وشخصيات امثولتي هذه، وسلفنا (أبوليوس) وحتى الغزالة والحسناء، ولكن عفواً، إن علي أن أتوقف قليلاً فالغزالة والحسناء ليستا إلا تلخيصاً ممتازاً لتلاقي وتصارع موجتين ظلتا تضربان طرابلس عبر كل العصور، أعني مد المتوسط ومد القبلي.

كلبنا الذهبي وهو يتبع السنيورة عبر ممرات لبدة الكبرى ويتأمل كتفيها الصغيرين وارداقها اللينة المائعة ويتأمل منذهلاً ومتشهياً زغب ذراعيها تحت اشعة شمس ليبيا اللاهبة ثم وهو يتأمل سالمة وهي تصارع لتخلع رداءها الليبي ثم وهي تتأمل نفسها بفساتين السنيورة وتتعثر بكعبها العالي، ثم وهو يلف حول تمثال الغزالة والحسناء ويراهما يتسمران بعد لحظة اشتباك

وقتال شرس بينهما – يبدو أن النحات الايطالي كان يريد عبر عمله الفني هذا تصوير هدنة بين الغزالة والحسناء – بعد معارك طاحنة بين غزالة الليبيتشيو وحورية المتوسط وقد أرهقت الفريقين، ربما تبدو هذه القراءة معقولة، أوصلني لها هذا اللعب الأليغوري السائل، دعوني أضيف شيئاً، أن النحات الايطالي فتح نافورة المتوسط على الجسدين المتسمرين وكأنما ليطفئ نيران المعارك وربما ليشير لإنتصار البحر على الصحراء، إنتصار الحورية على الغزالة، ولكن كان بإمكان كل الطرابلسيين أن يروا رمال القبلي وهي تعصف بتمثال الغزالة والحسناء حتى توشك أن تغرقه كما فعلت بواحات كثيرة من قبل. الهدنة التي يصورها تمثال الغزالة والحسناء وسط الحديقة الطرابلسية ليست دائمة بل لا يبدو التاريخ الطرابلسي إلا فصولاً وموجات متواصلة من المد والجزر، من المعارك والمعارك وبعض الهدن.

طرابلس واحة تزدهر في لحظات الهدنة بين هذين الكائنين المتسمرين تحت مياه نافورة المتوسط ورمال القبلي، بين الغزالة والحسناء، هذا التاريخ العبقري الذي كتبه ايطالي تمثالاً لطرابلس الغرب، أظنه كان في ايام الهدنة بين الليبيين والايطاليين والتي امتدت ثلاث سنوات فقط بعد نصب ذلك التمثال وسط حديقة (جراند هوتيل) لتزحف بعدها جيوش الايطاليين نحو تخوم طرابلس (نحو فزان) كما اسماه (رودولفو غراتسياني). اكتشف عبره اعني عبر هذا التاريخ، بطلنا معاناة مسخه وتحوله.

سيرة بطلنا المتوازية مع سيرة لوكيوس وكذا مع سيرة كلاب وذئاب العصر المطير تتطابق مع سيرة الغزالة والحسناء بل تبدو سيرته تفصيلاً لتلك اللحظة التي نحت فيها ذلك النحات الايطالي تلخيصه البليغ لطرابلس ولا تبدو سيرة لوكيوس إلا مجرى متوازياً مع سيرة بطلنا الغريب.

غزالة ترغلات

سالمة أو غزالته وسنيورته الآن، بدت له ومنذ دخولها لبيت السنيورة (غزالة وحسناء) جديدة، تمثالاً طرابلسياً جديداً، كانت وهي ترتدي ملابس السنيورة وتتعثر في كعبها العالي تعاني حقاً آلام التحول التي عاناها ليلة مسخه. كان أيضاً بروب سنيور ميت وكانت بملابس وحذاء سنيورة مطرودة من بيتها الليبي. كانت قد جذبته برائحة الوديان التي غادرها وكأنما كانت تناديه للعودة إلى تلك الوديان، كانت تفكه من اسر السنيورة التي حولته إلى رجل كامل يسعى على قدمين، وكان يراها تتحول إلى سنيورة كما رأها وهو يتأمل التمثال غزالة مسخت مثله. كان وعبر سالمة وتحولاتها يرى ويشم كل تفاصيل الغزالة والحسناء ويشم روائح الوديان والبحر الطرابلسي.

في تلك الأثناء كان العقيد القذافي يخطب في زوارة ويعلن الثورة الثقافية والنقاط الخمس، كان يعلن بداية التحول الشامل، بداية الثورة الثقافية، ويعطل كل قوانين العهد البائد (الملكي) ويمنع كل الكتب الصفراء ويأمر باعتقال كل المرضى (المثقفين) كما يعرفهم العالم، فالقوانين كانت سداً ضد سيول الثورة، والمثقفون والحزبيون ليسوا إلا مرضى بالجرب الفكري مما يتطلب عزلهم عن المجتمع، كي لا يستمر المسخ والتشوه الحضاري.

كانت الميادين قد بدأت تغص من جديد مناصرة للأخ العقيد في معركته ضد الإرث الايطالي والانجليزي والملكي من أجل التحرر من كل قيود الماضي البغيض – كما ظل يهتف راديو وتلفزيون الثورة الفتية – كان بطلنا في تلك الأثناء، يجلس على اريكة السنيورة حيث قرأت له فصلاً عن الجحيم، وحيث حذرته من الانمساخ والتحول وعذاباتهما، وكانت سالمة ودون أن تلتفت إليه تخلع مسرعة ملابس السنيورة وتلقي بها متناثرة عبر الصالة الواسعة، لتقف عارية تماماً تلف حول نفسها كغزالة تفك عنها قيوداً قاسية كانت تكبلها، أو ربما كحورية بحر تتخبط على رمال طرابلس لتهاجمها كلاب طرابلس الجائعة.

اخرجت رداءها الليبي وارتدته مسرعة ثم اندفعت خارجة إلى الميدان وهي تولول مزغردة وغابت عن بصره لوقت قصير ثم رأها وهي تملأ شاشة التلفزيون. كانت غزالة طرابلس في تلك اللحظات بالنسبة له، وبحث عن رائحة الوديان، رائحتها، في أرجاء البيت دون أن يجدها، فأحس بأنها تبتعد كثيراً رغم أنه يراها قريبة تملأ شاشة التلفزيون.

خرج باحثاً عنها وسط جموع الميدان ولم يجدها فمضى إلى التمثال حيث لا تزال الغزالة والحسناء متسمرتين وحيث لا تزال الحسناء تتكئ على كتف غزالتها رغم الزحام والضجيج، وأحس لأول مرة بهشاشة الحسناء وضعفها، فهي تمسك بعنق الغزالة مرهقة وكأنما تستجديها التفاتة نحوها منذ نصف قرن في تلك اللحظة بالتحديد.

احس بالصهد الليبي، بالليبيتشيو وهي يجلس متكئاً على حوض الغزالة وقد توقفت نافورتها عن رش الجسدين المتسمرين بالماء على غير العادة منذ نصف قرن، وسمع لأول مرة أنات الحورية وهي تلتهب ويحرقها جفاف الليبيتشيو، ثم عصفت رياح ابريل، اقسى الشهور فعوى عالياً وعاد إلى الميدان ورغم الزحام والضجيج سمع صهيل خيول نافورة ميدان الشهداء ورأها تشبو حقاً متحدية ومستعدة للقتال. كانت خيول الفاتحين وكما ظلت دائماً تتدفق عبر شارع عمرو بن العاص لتصل إلى نافورة الخيول بميدان الشهداء وظلت السيول تتدفق عبر شارع الوادي الاسم الشعبي لشارع عمرو بن العاص، لتغمر ميدان الشهداء ونافورة خيوله، وظلت جموع الهاجين تتدفق من الصحراء يطاردها العطش باتجاه الميناء.

انتصب امام نافورة الغزالة والحسناء وطرق بقوة على فخذ الحسناء فوجده مجوفاً فارغاً، واحس بفراغ داخله، رجل اجوف، فعوى مهتاجاً عله يملأ جوفه الفارغ.

لا أدري أنا كاتب هذه الأليغوريا لماذا اقع طائعاً في هذا الفصل تحت وطأة (المعري) الاوروبي (ت. س. إليوت) وأرضه الخراب؟

كان القذافي والكلمات تتدفق من فمه يطلق عقال براري من الرمل والطين والغزلان والذئاب والضباع والنسور، يهشم صلصال الغزالة وسدود السيول واسوار لبدة الكبرى، يفتح الطريق لجيوش الجرمنت لتدخل المدن والدوائر الحكومية والمكتبات والمسارح، يغطي زحفها غبار (الليبيتشيو)، كان يقود معركة الاسترداد، متقدما (نحو طرابلس).

وكان بطلنا وحيداً امام تمثال الغزالة والحسناء يلف على أربع مهتاجاً إثر صراخ القذافي والجموع وتستبد به رغبة للعواء، هو لا يعرف إن كان مبتهجاً أم غاضباً، ولكن به رغبة للعواء عالياً وبشراسة، فعوى مرة ومرتين واحس براحة إثر ذلك، ولكن تلك الراحة تحولت إلى احساس بالفراغ، لكأنه كان مملوءاً بالهواء، وتدفق من جوفه كل ما كان يملأه، فعبّ من الهواء المغبر ما استطاع، وسمعها تهمس له «ما بك؟!»، كان همسها يتحول شيئاً فشيئاً إلى صفير ريح صحراوي جاف، كان به رنين فخذ الحسناء المجوف، والتفت إلى رأس الحسناء حيث كان وجه السنيورة وتحسس زغب ذراعيها الذي رآه متوردا في شوارع لبدة الكبرى يوماً ما، كان يجف، وود لو كان بإمكانه أن يبلله بلسانه فوجد لسانه جافاً ويتدلى لاهثاً ككلب اصيل.

«ابريل اقسى الشهور» وكان كل ذلك في ابريل عام 1973م وكانت ليبيا حقاً تتحول. كان فرن الليبيتشيو يتقد وكانت سيارات الأمن قد بدأت تتحرك في أرجاء البلاد. كان رؤساء فرق القبض يعيدون قراءة قوائم المطلوبين ليحددوا عنوان كل واحد منهم، بعضهم يعرف المطلوبين وعناوينهم دونما حاجة لتلك القوائم، فغالبها قديم وموروث من قوائم أمن المملكة، تقريباً نفس المطلوبين عام 1967م ربما اضيف لها بعض الاسماء الجديدة ولكنها تقريباً نفسها.

القوائم الجديدة والغريبة كانت قوائم مطلوبين غريبين، لم يعرفهم الأمن الليبي من قبل وكل من فيها كان مطلوباً ليس للإعتقال وإنما للحرق في محارق علنية وسط ساحات وميادين المدن. المطلوبون للحرق كانوا كتباً، نعم كتب من ورق وحبر،

كتب ماركس وفرويد وداروين، غالبية ما أنتج الأوروبيون من كتب، وأيضاً كتب الأحزاب الإسلامية والقومية والاشتراكية والشيوعية التي كتبها عرب ومسلمون. كان على الأمن أن ينقض على المكتبات ليطهرها – كما يقول الراديو والتلفزيون – من الكتب الصفراء والفكر الرجعي العميل.

كانت (الثورة الثقافية) كما اسماها القذافي والتلفزيون تجتاح البلاد كلها فهاجمت الجماهير كما ظهر على التلفزيون بيوت بعض (المرضى) وهو وكما اشرت سابقاً لقب جديد يخص (المثقفين) واخرجت الجماهير ما وجدته من كتب في تلك البيوت واحرقتها، بالطبع لم تطغى روائح الورق والحبر المحترقين في طرابلس تلك الأيام على رائحة الغبار التي ظل (الليبيتشيو) ينفثها حارة وخانقة.

بعد أن عاد بطلنا إلى البيت أخرج كتاب السنيورة الذي ظلت تخرجه وتقرأ له منه فصل الجحيم وأقام له حفلة حرق كتلك التي شاهد الجماهير تقوم بها على التلفزيون. ألقاه في الحديقة وغطاه بالأعشاب الجافة واشعل فيه النار ولكن ذلك لم ينجح ولم يحترق كتاب الجحيم، فتدخلت سالمة بعد أن أبعدته قليلاً ومزقت الكتاب إلى قطع ووضعت العشب الجاف تحته ثم غطته به وما أن اشعلت العشب تحته حتى سرت النار في الورق والحبر والأعشاب، في تلك اللحظات تذكر أنه لم يشعل ناراً في حياته من قبل، ظل يرى النار تشتعل ولم يحاول أن يشعلها طوال حياته البشرية الماضية.

كانت بعض نتف الورق تطير هاربة من المحرقة حاملة بعض الكلمات، وكانت سالمة تعيدها إلى المحرقة بعد أن تطاردها وهي تطير، كانت تلتقط بعضها من الهواء وبعضها بعد أن يحط، ولم تتركها إلا بعد أن تحول الكتاب إلى هباء نثرته الريح في كل أرجاء الحديقة ثم تلاشى في غبار الليبيتشيو الحار.

وكنت أنا كاتب هذه الأليغوريا وأنا أكتب السطور السابقة افكر في كتابة حكاية هروب كتاب من محرقة وما عاناه وكيف كان يغير غلافه وعنوانه من مدينة إلى اخرى ومن قرية إلى اخرى، كان الكتاب (الهارب) من المحرقة ثقيل الوزن وما كان بإمكان رياح الرحمة أن تحمله، لذا ظل يزحف على بطنه كسلحفاة عجوز، حتى وصل مكب قمامة واخفى جسده المتهالك تحت القمامة لتفاجئه النار منتصف الليل بعد ان اشعل عمال النظافة النار في كوم القمامة ليتدحرج دون أن يدري إلى أين حتى وجد نفسه في حضن شجيرة مباركة اخفته عن عيون المطاردين لأيام قبل أن تقتلعها عاصفة ليبيتشوا وتطيرها بعيداً وتتركه في العراء.

الكتاب الهارب عانى مطاردة النار والريح والأمطار والفئران وكل انواع القوارض، وتطايرت اوراقه واحدة بعد الاخرى ولم يتبق منه إلا غلاف قوي.

(امثولة الكتاب) التي ضمنتها سردي هذا مستطرداً كالعادة لم استطع متابعتها وكتابتها بشكل أفضل، رغم انتمائها لهذا اللون الذي أكتبه الآن وتقبل جسد هذه الأليغوريا لها، إلا أنها كانت بحاجة لغبش أرجنتيني اسمه (بورخيس) لتكتب بشكل أفضل!

سالمة وهي لم تعرف الكتب ولم ترها أو تقابل احداً يملكها أو يحملها قبل هجيجها إلى طرابلس، وكل ما تعرفه عن الورق والكتابة كان بعض الأوراق الصفراء التي ورثها زوجها قبل هجيجه واختفائه من جده، كانت طابوات أرض كما قال لها. تحسست الكتاب والورق وتعرفت إلى ملمسه ورائحته وهي تهم بتمزيقه وحرقه، أنها تعرف الكتب والورق الآن، ربما استخدمت الورق من قبل لإشعال النار ولكن دونما اهتمام أما هذه المرة فقد فعلت ذلك بإنتباه واهتمام، فحرق الكتب وحفلات إعدامها كانت عملاً هاماً على مايبدو، فالتلفزيون والراديو لا يتوقفان ولأيام للحديث عن خطر هذه الاغلفة وهذا الورق والحبر حتى احست بأن شياطين الدنيا تسكن تلك الاغلفة والاوراق.

وأحست بالراحة بعد أن أحرقت كتاب السنيورة ورأت زوجها وهو يتنفس الصعداء بعد الحرق، كانت ولا شك، شياطين الطليان والانجليز تختبئ في البيت مترصدة بين دفتي ذاك الكتاب وكان لا بد من حرقها كي يدوم هناء وراحة البيت والبلاد كلها.

بطلنا لم يعرف الكتب ابداً، فحتى بعد مسخه بسحر ملاكه الايطالي لم يلمس تلك الكتب رغم وجود بعضها في البيت ورغم انهماك السنيورة في قراءتها من حين لأخر، فقد ظلت بالنسبة له ادوات سحر لا يعرف معناها ولا اثرها، حتى قرأت له فصلاً عن الجحيم من احدها، عندها أدرك أنه ورغم ملاكه الايطالي الوديع يعيش فصولاً من الجحيم الطرابلسي، وأن ملاكه يقف على بوابتين إحداهما تفضي إلى الوداعة واللذائذ أما الأخرى فتفتح على (الليبيتشيو) والغبار وعذابات التحول والمسخ، كانت وهي تقرأ له ذلك الفصل المركز القصير تعصر روحه كما عصرت جسده ليلة المسخ والكوابيس. كان صدرها اللين الناعم ملاذ رأسه في تلك اللحظات من عواصف (القبلي) والعطش والتيه، وكانت كلمات الكتاب وهي تفحّ من فمها بألسنة ملتهبة حارة وقاسية تلتهم كل داخله، كانت تحيله إلى تمثال مجوف كالغزالة والحسناء، أكلت النيران داخله ورطب صدرها وشفاهها خارجه ليكون ناعماً وخفيفاً واجوفاً كغزالة طرابلس وحسنائها.

الطليان وهم ينزلون دباباتهم على شواطيء طرابلس وبنغازي ويواصلون معارك روما ضد سكان التخوم وجيوش الجرمنت التي تدفقت للدفاع عن طرابلس بعد اربعة عشر قرن من الهدنة، كانوا يحاولون عبثاً حرق ما بالداخل وجعله فارغاً مجوفاً لتواصل فرقة (اوغسطا) رش ذلك المجوف بالنوافير والسدود وأشجار السرو والبلوط، بالميادين والعمائر ومراكز البوليس وحتى المسارح والنوادي والكازينوهات، كانوا حقاً ومنذ دخول دباباتهم يشيدون تلك المنحوتة لتتكئ الحسناء على الغزالة ترشهما مياه النافورة وسط غبار (الليبيتشيو) الجاف.

العقيد القذافي وهو يرش (الثورة الثقافية) من (زوارة) على الكتب والمسارح والآلات الموسيقية، على الادارة والتعليم والصحة، على الملابس والمطاعم، على الشيكولاتة والموز، على كل ما ترك الطليان والانجليز والمملكة، كان يعلن معركة (الاسترداد المقدسة).

الاسترداد مصطلح يقتحم مع خطاب القذافي هذه الامثولة التي لم اكن احاول ان اسرد عبرها إلا ذلك الشغف بالطرائف والغرائب من القصص.

كان الليبيون وقبل القذافي أيضاً لا يتوقفون عن مصطلح (السلب) فكان سلب الثروة وسلب السيادة وسلب البلاد، كانت احاديث المثقفين الليبين تعج بهذا (السلب) في المقاهي والجرائد، لذا شرع القذافي ومنذ السنة الاولى للثورة في معركة الاسترداد، فاسترد المزارع والمصانع من الطليان واسترد البنوك وشركات النفط من المستعمرين كما كان يقول، وكل ذلك لاقى ترحيباً ورضاً كبيرين من غالبية الليبيين.

المثقفون وهم فئة صغيرة من الليبيين ولكنها مؤثرة كما كان يرى العقيد القذافي، لم يتوقع أفرادها أن يكونوا هم وكتبهم ومكتباتهم وجرائدهم هدفاً أيضاً لمعركة الاسترداد، حتى فوجئوا برجال الأمن يقتحمون بيوتهم ويحرقون مكتباتهم ويسوقونهم إلى السجن. كان القذافي وبالثورة الثقافية كما ظل يشرح للجماهير يريد «استرداد العقل المخطوف» من براثن الفكر الأوروبي المستعمر، لذا أعلن الثورة الثقافية من زوارة وهي مدينة يسكنها (امازيغ ليبيون)، كان يعلن أن الثقافة العربية الاسلامية هي ثقافتنا التي عليها أن تعمر عقولنا وقلوبنا، لن نقرأ إلا بالعربي ولن نكتب إلا بالعربي ولن نغني إلا بالعربي ولن نرقص إلا بالعربي.

كانت الساحات تعج بالهتافات العربية وكان الراديو والتلفزيون لا يبث إلا الاناشيد والبيانات العربية، وكان بطلنا لا يتوقف عن العواء دون أن يعرف إن كان عواؤه سعادة أم غضباً، ظل مبهماً وغامضاً وسط ضجيج المسيرات ولكنه ورغم كل ذلك صار (ايقونة) للاسترداد، فها هو كلب السنيورة كما أسماه (التواجير) يعود إلى حضن غزالة ترغلات، ويحرق كتاب السنيورة ويسترد مزرعة أجداده وبيتهم من الطليان الفاشست كما يكرر التلفزيون والجرائد. كانت صورته وهو يعوي عالياً قد تكرر ظهورها على صفحات الجرائد وكانت غزالة قد علقتها بغرفة الأطفال بدل صورة الايطالي المتجهم وكلبه الأسود.

الغزالة والحسناء ظلتا متسمرتين في ميدانهما المجاور لمبنى البرلمان، لم تطلهما معركة الاسترداد رغم أنهما ميراث ايطالي ولم ينلهما كلام الجرائد ولا الراديو والتلفزيون بسوء. خيول نافورة ميدان الشهداء أيضاً ظلت تشبوا امام بنك روما الذي تم استرداده. أما تمثال سبتموس سيفيروس فقد تم حمله إلى (لبدة الكبرى) مدينته الأولى.

كان بطلنا وهو يتأمل تمثال الغزالة والحسناء كل يوم ويضرب على فخذ الحسناء المجوف، يشعر بحنين جارف لاحضان غزالته سالمة متجاهلاً أنات الحسناء التي صار يسمعها كلما توقف هناك. كان يرى كل ما حوله يتحول من حضن السنيورة إلى حضن سالمة. كانت وهي تستقبله في البيت تبدو غزالة حقيقية، رغم بعض الندوب التي بدأ يراها على وجهها، كانت آثار معارك لا بد أنها خاضتها بالحجارة هناك بمرابعها الأولى بوادي ترغلات. كان ثمة ندبة صغيرة على عرنينها، أشبه بجرح لم يلتئم جيداً وأخرى على شفتها العليا وثالثة بكاحلها الأيمن، وكان يتوقف متردداً وهو يصل إلى تلك التي على فخذها الايسر وهو يقبل كل ما فيها لاهثاً ويود أن يعض حيثما لا بد أن كلباً بترغلات قد عض قبله. كان جسدها ودياناً وشعاباً طارد فيها الطرائد طويلاً، وكان ذلك الفخذ وتلك الندبة حياة افتقدها بعد مسخه، أن يشم، أن يعوي، أن يعض، أن يغرس أنيابه في لحم الغزالة الطازج، أن يشخر منتشيا بأناتها، ليئن بعد ذلك على صدرها لاهثاً تغمره

روائح السدر والطلح والبطوم، وتدوم فوق رأسه الجوارح والعصافير وتتربص الضباع بها وبه من فوق الجبل. كان ربيع ترغلات الطرابلسي يتفتح بأزهاره ونبقه وسدره وطلحه وهي تستقبله بابتسامتها حافية دون كعب السنيورة العالي، تغمره وتسترده ويسترد طرابلس وبراريه معاً فيها.

خيول نافورة ميدان الشهداء ظلت تشبوا كما ظلت لأكثر من نصف قرن، وظلت النافورة ترشها بالماء، هو لم يهتم بها كثيرا ولم ينتبه إلى أنها مثل الغزالة والحسناء، ليست إلا منحوتة ايطالية تتوسط قلب طرابلس، كما الغزالة والحسناء، مقابلة لسبتيموس سيفيروس الذي ظل يرفع يده محياً كل العابرين بالميدان، لم ير تلك الخيول فيما مضى من حياته الطرابلسية إلا حجراً صامتاً، عكس الغزالة والحسناء التي ظل يسمع اناتها منذ وقفته الأولى أمامها، أما الآن وبعد أن استردته سالمة، فصهيل خيول الميدان يعلو بسمعه وحمحماتها تعمر بيته، كانت أصواتها تتداخل مع أصوات المتدفقين إلى ميدان الشهداء وهتافاتهم وكانت سالمة تولول متناغمة مع ذلك الصهيل وتلك الحمحمات، كان كل شيء في طرابلس يعود، كانت السنيورة تتلاشى، وكانت غزالته تهيمن على كل ما فيه، وكان صوت القذافي يعلو متناغماً مع الصهيل والهتافات والولولة.

الغزالة والسنيورة

ظللت أنا كاتب هذه الأليغوريا أعتقد أن الحسناء كانت تتكئ على كتف الغزالة متعبة وتخشى السقوط، هذا ما كنت أراه وأنا اقف امام المنحوتة الطرابلسية، ثم تطور الأمر معي لأن ارى – عبر هذا السرد – أنهما تتسمران مرهقتين بعد قتال شرس بينهما، وأن المنحوتة لا تصور إلا لحظات هدنة بين الغزالة والحسناء، واستنتجت وأنا أواصل سردي واستطراداتي الطويلة والمعيبة بالطبع، أن طرابلس مدينة تزدهر في فترات الهدنة بين الغزالة والحسناء، تلك اللحظات التي تصورها المنحوتة العبقرية والتي ظلت تظهر من حين لأخر وسط ذلك الصراع الممتد لآلاف السنين، حروب وحروب وبينها هدن قد تمتد لعقود ولكنها تنتهي، ليتجدد الاشتباك بين هذين الكائنين الذين يتسمران في لحظات هدنة وإن طالت فهي عابرة، كان جنون كينوبس والمجينين واعمال فرقة اوغسطا، وسدود وعمارات وشوارع وميادين (بالبو) الطرابلسية وتمثال الغزالة والحسناء ليست إلا هدناً قصيرة بين هاتين الجميلتين المتسمرتين.

النحات الايطالي كما اعتقدت اراد أن يخلد تلك اللحظات ولعاً بطرابلس (الغزالة والحسناء)، ولكن الحسناء في التمثال لا تتكئ على كتف الغزالة كما اكتشفت الآن، بل تمد يدها تحت عنق الغزالة وتستجديها أن تنظر إليها وتسمع ما تقول، بينما الغزالة ترفض الالتفات والاستماع، كانت لحظة رفض لأي كلام أو سلام، كانت الغزالة غاضبة والحسناء حزينة وكل ما في تفاصيل التمثال لا يوحي إلا بالقطيعة والفراق بين الكائنين المتسمرين في ميدانهما الطرابلسي. كانت الغزالة تحاول عبثاً أن تطيب خاطر الغزالة وتتوسلها السماح، ولكن الغزالة تظل غاضبة تنظر إلى الاعلى ترفعاً وربما غضباً، كان رأس الغزالة يوحي بحنق واحتقار، وبدت الحسناء كأم تحاول إرضاء ابنتها الغاضبة. الحسناء العارية بدت لي في لحظات معينة ارملة ضبطتها ابنتها الحاقدة في سرير الخيانة مع العشيق، قاتل الأب، الذي سلب الغزالة الأب والأم.

أي تواريخ يكتبها هذا التمثال الطرابلسي؟ وربما أي رؤى تظهر لي عبر هذين الكائنين المتسمرين وسط حديقة (الجراند هوتيل) في كل مرحلة من مراحل هذا السرد الأليغوري المنفلت؟

حكايات الليبيين المليئة بالجنيات والغيلان والملائكة التي تطير، بالحمير والغزلان والذئاب والكلاب والضباع، تخلو تقريباً من حكايات حوريات البحر ولا يرتبط البحر في غالبية حكاياتهم إلا بالغدر والغرق والموت، لا كائنات ولا جنيات تخرج من البحر في حكاياتهم، لا شيء يأتي من البحر عدا الغزاة والقتلة، بينما تعج تلك الحكايات بالغزلان وحتى بالذئاب والكلاب والضباع والأفاعي والهوام.

الغزالة ظلت في الحكايات الليبية اميرة مسحورة تم مسخها، أو جنية تتجلى لمن تعشق من الرجال في هيئة حسناء، كان صيادو الصحراء الليبية وهم يطاردون الغزلان يخشون دائماً النظر في عيونها بعد الاصطياد، كانت عيون الغزلان ترسانة

من اسلحة السحر والحب القاتل كما ظلوا يعتقدون لآلاف السنين.

الغزالة صنو الانثى الجميلة الساحرة وقد لا تخلو اغنية أو قصيدة ليبية من غزالة فاتنة قاتلة. الغزالة تتحول إلى حسناء بين يدي الصياد وهو يهم بذبحها إن نظر في عينيها، تصيبه عيناها بسهام العشق القاتل والهلوسة، بعضهم كما تقول تلك الحكايات يضيع في الصحراء مطارداً لتلك الحسناء حتى يموت من العطش وهو لا يرى إلا عينيها.

حسب هكذا حكايات لا تبدو المنحوتة لغزالة وحسناء، ولا تصور لحظات هدنة وتوقف للعراك بينهما ولا حتى مسخاً قام به نحات ايطالي لغزالة من الصحراء الليبية وحولها إلى حورية من حوريات المتوسط، التمثال ليس إلا لحظة اصابة ذلك النحات الايطالي بسهام عيون الغزالة وتحولها بين يديه إلى حسناء، التمثال ليس إلا لحظات عطش وهلوسة الصحراء التي أصابت ذلك الايطالي في مقتل، ربما كان يهم بذبحها وهو ينظر في عينيها لتغرقه في الهلوسة وتتجلى له حسناء فاتنة، ربما رأها في تلك اللحظات (حورية بحر) عكس حكايات الليبيين، ربما غرق في النحت مهلوساً وضاع في صحراء تلك اللحظات. كان عطشاً بالتأكيد فالحسناء تظهر في المنحوتة وهي تخرج من الماء مبللة ومعها جرتها، كان لا بد أنه يلهث مستجدياً رشفة ماء من جرتها، وكانت الغزالة تشيح برأسها عنه وتقف شامتة.

النحات الايطالي ليس إلا ضحية أخرى من ضحايا الغزالات الليبيات، ربما رافق (غراتسياني) في حملته (نحو فزان) وأصابه العطش والهلوسة.

صدفة البحر التي خرجت عليها فينوس الليبية، والتي تطفو على مياه حوض النافورة الطرابلسية والتي جعلها النحات قاعدة للتمثال تظهر مقفلة، لا أمل للحسناء في العودة للاحتماء بها هرباً من غبار الليبيتشيو وصهده، إنها حقاً تستجدي الغزالة أن تمسخها، أن تحيلها غزالة صحراوية مثلها، والغزالة تشيح بوجهها شامتة.

كانت سالمة وهي تدخل طرابلس لا ترى إلا الهاجين والطليان. كان الطليان نظيفين ولامعي الشعر والبشرة ومتوردي الوجوه، حتى رجالهم كانوا تفاحاً يغري بالقضم، وكانت اجسادهم متناسقة وقوية، لكأنهم كانوا ثماراً ناضجة طازجة قطفت للتو من أمها، كانت تراهم عن قرب في بيت السنيورة وتسرق النظر إلى تفاصيلهم المبهرة، كانوا ثرثارين ولا يتوقفون عن الضحك والكلام عكس ما عرفت من الرجال الليبيين.

ولكنهم (يم يم) يأكلون الأطفال والنساء بعد أن يقتلوا الرجال، هكذا عرفتهم قبل أن تراهم. كانت كل الحكايات في نجوع (ترغلات) لا تصفهم إلا بـ(اليم يم)، هم وسيمون كزهور سامة، وعلى الغزالة أن تحذر من روائح الزهور السامة النفاذة وطعمها الشهي، وعلى العين ألا تتأمل ألوانها المبهجة، هي ليست إلا ألوان السخرية والشماتة، هي لم تتعرف على تلك الزهور في (ترغلات) ولكن الحكايات تعج بضحاياها من الغزلان والغنم والارانب، بالضبط كما تعج باليم اليم الطليان.

كانت السنيورة ورغم طيبتها وجمالها (طليانية) تجري بعروقها دماء (يم يم). منحتها الطعام والملابس القديمة وحتى الحلوى لأطفالها، ورغم كل ذلك لم تطمئن لها في أي من الأوقات، كانت تنكر أن لها اطفالاً خوفاً عليهم من تلك السنيورة

التي تقول الحكايات أن قومها يأكلون الأطفال والنساء، هي لم تر من السنيورة أي شيء يثير كل تلك الريبة والمخاوف ولكن الحكايات وحتى الكوابيس ظلت تعمر رأسها. كانت السنيورة الشقراء الجميلة ترش العطر حيثما مرت، كانت غمامة العطر تحيط بها من كل جانب، عطر ساحر يشد إليها كل الأنوف والمشاعر، إنها تلقي بفخاخها في كل مكان، يتعلق بها كل الذكور الليبيين ويتبعون عطرها كالكلاب، لكم يغضبها ذلك، إنها زهرة سامة رغم ما تشع حولها من عطور وبهجة. كان كلبها الليبي (ليبيتشيو) لا يفارقها مشدوداً من أنفه لها، كان يلتصق بها متمسحاً وهي تقف أو تمشي أو تجلس، بل وينام معها بسريرها، كانت تراه وهو يتشمم ولهاً كل ما فيها وكان لسانه لا يتوقف عن مداعبة عنقها ووجهها وحتى ساقيها دون أن تنهره أو تبعده، بل وتضحك سعيدة بمداعباته، كان ذلك يشعرها بالقرف من السنيورة. كان (ليبيتشيو) كلب السنيورة المدلل، ثم اختفى فجأة. أين هرب؟ هل طردته؟ أم أكلته؟ هي لا تعرف والسنيورة نسته تماماً، لم تذكره منذ اختفائه الغريب، ربما هو الآن ضال بين الكلاب الضالة. وظهر فجأةً (سعيد) زوج السنيورة، هكذا بلا مقدمات. جاءت صباحاً فوجدته يتناول الإفطار مع السنيورة. كان ليبياً غريباً، يبتسم مكشراً، ويمشي متردداً وكأنما يخاف السقوط، لا يتكلم وينظر مرتاباً ويشم مقرباً انفه من كل شيء وكأنما يتلمس الأشياء والناس بأنفه. قالت لها السنيورة أنه زوجها وأنه ليبي مثلها، لم تكلمه رغم أنه ظل يقترب منها بوقاحة ويشم آثارها على كل شيء، هي أيضاً لم تنهره أو تبعده، تركته يتبعها عبر البيت وهي تكنس أو تغسل أو تطبخ دون أن تسمح له بالكلام.

مرة قال لها «أنت غزالة» فأبتسمت له لأول مرة، ولم تبعد يده وهي تتحسس وجهها وعنقها، كانت يده حارة وخشنة وكانت زوابع القبلي تعصف بداخلها، ثم قال لها (ترغلات) لاهثاً، كان لسانه يتدلى من فمه كلسان كلب وخافت أن ترى السنيورة ما يجري بينهما فهربت من البيت وهي ترتعش.

لم يتوقف عن مطاردتها في بيت السنيورة ولم تحاول أن تمنعه أو أن تشتكيه، كانت تراه رغم ضيقها به غريباً ووحيداً مثلها في بيت السنيورة، وفي طرابلس، كان من ترغلات حسب ما يقول، هي لا تعرف ولم تسأله كيف جاء من ترغلات وصار زوجاً للسنيورة في ليلة واحدة؟

هو هاج من الهجيج مثلها لذا لم تستغرب حين قابلته وسط أكواخ وزرائب الهاجين مثلها بل ادخلته كوخها وعرفته بطفليها واحست به قريباً منها، بل بدأت تراه اسيراً، مسحوراً وقع في حبائل تلك الايطالية العطرة السامة، وتمنت لو تسترده، نعم أن تسترده من الايطالية، أن تعيده كما يريد إلى براري وشعاب (ترغلات) البعيدة، كان (سعيد) شيئاً يخصها ويخص ترغلات وسلبتهما إياه هذه الايطالية المتصابية، الزهرة السامة.

لم تستطع أن تسترده حتى استعاد القذافي البلاد من الطليان والانجليز والامريكان والمملكة كما ظلت ترى وتهتف، أخرجته من بيت السنيورة إلى زحام الميادين وهتافاتها، افتكته من الحمى التي ضربته وابعدت السنيورة من طريقها وهي تنتشله، تزوجته، استعادته تماماً ثم استعادت له بيت السنيورة ومزرعتها. كان رجلاً غريباً ووحيداً مثلها، اكتشفت كم هو مختلف عن زوجها الأول، وتذكرت وهي تكتشف ذيله الصغير الذي حاول أن يخفيه عنها حكايات (بر الكلب)، ثم رأت

أن لسانه يتدلى من فمه حين تشتد حرارة القبلي، وبدأت تفتش عن بر الكلب فيه، في لهاثه وفي لسانه وهو يتدلى خارج فمه، في تكشيره وهو يمسح على ندبة فخذها بلسانه وتحس بأسنانه وكأنما تهم بالانغراس في الجرح القديم، كانت ترتعش متشهية وخائفة، ثم تتردد أسنانه وتبتعد عن الفخذ مفسحة المجال للسان ولعابه المتقاطر، لتطير بعيداً عنه وعن طرابلس، كان جرحها يتفتح كزهرة صبار وكان لسانه يمطرها بانتعاش ورعشة، لتنام هناك بعيداً وسط واد لا يسكنه إلا الغزلان والأرانب وكذا الذئاب والكلاب.

كان القذافي أثناء كل ذلك قد شرع في توزيع أقفاص الدجاج والأرانب وحتى النعاج على سكان المدينة من أجل الاكتفاء الذاتي. كان بإمكان المتجول في شوارع طرابلس أن يرى البلكونات الايطالية الطرابلسية وقد تحولت إلى زرائب للدجاج والنعاج، وصار سكانها يصحون على صياح الديكة عند الفجر، وصار عليهم أن يبحثوا عن علف لتلك الزرائب.

قالت له أن طرابلس لنا، ورأها غزالة تتقافز راقصة بين غرف البيت وفي الحديقة. كانت زهور الحديقة التي زرعتها السنيورة ورعتها هي بعناية أيام قدومها الأولى تتفتح، وكانت وهي تقف وسطها تبدو حقاً غزالة ترعى لاهية مستمتعة بكل شيء، هو لم يهتم في اي يوم من ايام حياته بالزهر ولا بالعشب، كان لا يشم ولا يرى إلا اللحم ولم تكن الغزلان بالنسبة له صيداً هاماً ولا سهلاً. كان يقارع الذئاب ويصطاد الأرانب والعصافير وأحياناً يفتك حتى بدجاج صاحبته الأولى، أما الآن وبعد مسخه إلى رجل، بعد مافعلته به السنيورة، فإن سالمة غزالة شهية، إنه يعود ولكنه يعود جديداً، أخراً، لا هو بكلب المراعي والمزارع ولا هو برجل السنيورة.

كان صدر السنيورة ناعماً وكان يمتص آلام رأسه وضجيجه بحنو عجيب. لم يكن يتوتر ولا يشبو إن مسه شيء كما يفعل صدر سالمة، كان حضنها بيتاً فسيحاً وهادئاً، وكان يود في لحظات خوفه وارتباكه أن يذوب فيه، أن يتلاشى في مسامها، كانت وهي تهدهده «ليبيتشيو ميو» تحصنه من كلاب كوابيسه المرعبة، هو ورغم هذه الغزالة التي تزوجها لم ينس السنيورة ورائحتها المبهجة، كان وهو يتمشى تحت اقواس عمارات طرابلس الايطالية يحس بحضنها، بهدهدتها، وكان يشم عطرها في حدائق طرابلس وكان من حين لأخر يبكي وحيداً امام منحوتة الحسناء دون أن يلقي بالاً لغضب الغزالة وهي تشيح بوجهها عنه وعن الحسناء. كانت حسناء التمثال بائسة وكان ذل العري يجلل جسدها كاملاً، كانت تستجدي مغتصبيها بعد أن نزعوا عنها كل شيء، منهكة وذليلة، كان قد بدأ يجلس طويلاً باكياً سنيورته التي جردت من كل شيء وطردت.

صارت منحوتة الغزالة والحسناء بالنسبة له الآن صورة عذاباته، ضجيجه الداخلي، كان وهو يقف كل يوم باكياً أمامها يرى السنيورة ويسمع أنينها وبكائها، يرى جسدها عارياً وذليلاً ومعروضاً للجميع دون أن يفعل أي شيء أو يبدي أي احتجاج، يعود إلى البيت، بيتها باحثاً عن رائحتها دون أن يجد منها إلا القليل، بقايا من رائحتها تختبئ هلعة في وسادة منسية أو بقايا عطر في زجاجة لم تكتشفها سالمة.

أنين الحسناء

انين الحسناء الذي ظل يسمعه خافتاً ومكتوماً لفترة طويلة بدأ يعلو، صار مسموعاً ليس له وحده، بل لغالبية الطرابلسين، خفت ضجيج الهتافات والاناشيد وصارت عذابات الحورية ظاهرة وجلية. علت الشوارع والعمارات والحدائق والنوادي الكأبة والتجهم، قفلت المتاجر واختفت الكثير من السلع. كان وهو يتجول في الشوارع يحس بالمقبرة وهي تطبق عليه، كانت طرابلس قد تحولت بالنسبة له لقبر مفتوح يتناثر فيه جثمان السنيورة الملاك الذي مسخه هكذا، لم يعد بإمكانه أن يعوي عالياً بل صار يبكي بكاءاً بشرياً مراً وحاراً. صارت سالمة وهي تتراقص عبر شوارع طرابلس (الوديان والشعاب) على أنغام الاناشيد الحماسية امرأة حادة، صارت تنظر إليه شامتة وهي ترى حزنه وضجره، ثم بلغ الأمر بها لأن تصفعه بعنف عندما وجدته يضم فستاناً للسنيورة باكياً، وقالت له ما لم تقله له من قبل «كلب!».

بدأ يقفل على نفسه في غرفة الكلب بحديقة البيت ويشغل الراديو على محطات الراديو الايطالية، خسر المزرعة التي تركتها له السنيورة بعد أن قسمتها الدولة على العاملين بها وطردوه كما طردوها قبله.

وجد في محطات التلفزيون الايطالية مهرباً وصارت عالمه الجديد، كانت الايطاليات بالتلفزيون سنيورته المفقودة، كان يفتش عن شبه فيهن منها، الشعر، الأكتاف، الأذرع، الأنف، أي شيء منها، كانت رنة أصواتهن والكلمات ترانيم فردوسه المفقود.

يمضي يومياً إلى تمثال الحسناء العارية المصلوبة وسط الميدان ويبكي تحت قدميها، لم يعد يرى الغزالة ولا غضبها وحنقها، كانت الحسناء مقيدة كصيد بحبال والغزالة تجرها عارية فوق الرمل والحصى، ويحس بكلمات القذافي الغاضبة سياطا لا تتوقف عن جلد الجسد العاري المجرور على الرمل والحصى.

كانوا قد اخفوا كل التماثيل التي كانت تنتصب بميادين طرابلس ولم يتركوا منها إلا تمثال الغزالة والحسناء وخيول ميدان الشهداء. كان تمثال الغزالة والحسناء تمجيداً وتفاخراً بانتصار الغزالة على الحسناء وأسرها وإذلالها، هكذا بدا له وسط حزنه، لم تكن إلا أسيرة في قبضة الغزالة الشرسة ولم يكن إلا زائراً لها في معتقلها الصحراوي، فالحديقة تصحرت من حولها وتحولت إلى مكب للقمامة وتوقفت النافورة عن ضخ المياه. كان يراها وسط الجحيم الطرابلسي القاسي ويبكي، كان جسدها قد بدأ يتشقق إثر سياط الرمل والجفاف، وكذا بدت مباني المدينة الايطالية، وأشجارها، هو يرى كل ذلك، يرى عذاباتها فيه ويسمع أنينها. كانت أكوام الزبالة قد اخذت تتكدس وتكبر على ارصفة المدينة وكانت الكلاب قد اخذت تتجول فيها حرة دون أن يطاردها البوليس أو الحرس البلدي، ما عادت تنتبه له ولا تطارده في الكوابيس كما كانت تفعل،

اكتشف أنه فقد القدرة على التواصل معها وفقدت القدرة على تمييزه بين البشر كما كانوا يفعلون. هل اكمل هذا الحنين للسنيورة وهذا الحزن على فقدانها تحوله وصار بفقدانها بشراً تاماً يسعى؟ لقد تعلم أن يحزن، صار إنساناً.

كانت سالمة قد تحولت أيضاً، هكذا فجأة، صارت شرسة وتزغرد في حفلات الشنق في الشوارع والجامعة، كانت تبدو له وهو يراها على شاشة التلفزيون تتعلق بأجساد المشنوقين كي تتأكد من خروج ارواحهم، تنتقم منه وتجرجر جثة السنيورة عبر الشوارع. صار يخافها وهي تستلقي إلى جواره على السرير، صارت ضفائرها الخشنة قروناً تهاجم صدره لتطعنه، فينهض من جوارها هارباً إلى بيت الكلب بالحديقة حيث ينكمش على نفسه خائفاً ويحلم بالعودة. كان كل شيء يتحول من حوله إلى قرون تطارده، يرتجف وحيداً ويسمع أنين السنيورة ووقع حوافر قاسية وحادة.

كانت حفلات الشنق التي بدأت تقيمها الحكومة لاعدائها كما تسميهم قد أخذت تتكرر في الجامعات للطلبة وفي الميادين للمعارضين. توزعت على المدن والقرى وصار الشنق برنامجاً شبه يومي على شاشة التلفزيون، وعادت حملة القتل للكلاب الضالة كما يسمي التلفزيون والراديو الضحايا، لتطارد ليس الكلاب كما عرفها من قبل بل بشراً عاديين، وازداد رعبه حين ظن أنهم ربما يكونون (متحولين) مثله، نعم لا بد أنهم كذلك، هم يقولون كلاب ضالة رغم مظهرهم البشري الكامل، مثله تماماً، لا بد أنهم ضحايا سنيورات كسنيورته، هو لم يخشّ حملة حرق الكتب بل شارك فيها وتحمس لها انتقاماً من السنيورة والجحيم الذي ظلت تقرأ له عنه وتهدده به، ولكن هذه الحملة تخص الكلاب المتحولة بشراً، نعم تخصه، بل إن سالمة قالت له ذلك بوضوح «كلب!». لقد عانى رعب وكوابيس مطاردة بوليس البلدية للكلاب الضالة، هرب إلى معقلها محتمياً بالغابة رغم أن الحملة كانت تخص الكلاب التي لم تمسخ مثله. لم يمسسه احد تلك المرة، أما هذه فإنها تخصه وتخص أمثاله من المتحولين. لم تهاجمه كوابيس الكلاب في بيت الكلب كما ظلت تفعل ايام الحملة القديمة، صارت قرون الغزالات ما يهاجمه كلما حاول النوم، كانت قطعان القرون تتربص به لتمزقه ارباً. كان يرى عينيه وقد رشقتا على قرني غزالة متوحشة ويرى بهما، بعينية المرشوقتين على القرنين جسده وقد تناثر على قرون القطيع، كان يتفتت بين القرون، وكانت سالمة تقود القطيع صارخة «كلب!».

كان ينكمش على كرسي إلى جوار كنبة السنيورة، وكانت سالمة تقف امامه محدقة في عينيه وكان يخفض نظره تجنباً لما في عينيها من غضب وكره له. لم تقل له «ما بك؟!» كما فعلت معه السنيورة إثر كوابيسه الماضية، بل قلبته على بطنه ونزعت بنطاله وقبضت على ذيله الصغير بعنف فصرخ متألماً، ثم تحول صراخه إلى انين وتناغم مع انين السنيورة الذي ظل يسمعه عبر شوارع طرابلس الايطالية، ورأى جسد الحسناء يجلد بسياط الغزالة المتوحشة. كانت وهي تلوي ذيله الصغير بعنف تخنقه وتضحك متلذذة بذلك، ثم تتركه ملقى على الكرسي وتخرج للمسيرات هاتفة، تعود بعد ساعات والعرق يتقاطر منها ورائحة الوديان التي سحرته بها تعبق في البيت مطاردة لما تبقى من روائح السنيورة المطاردة، كان يعيش عذابات ما بعد المسخ مرة اخرى، يعيشها هذه المرة على يد ملاك قاس اسمه سالمة.

كان الجميع قد انخرط في مطاردة فلول سنيورته، مزقوا مزرعتها قطعاً صغيرة، تقاسموها نتفة نتفة، حطموا تماثيلها وأنصابها التي كانت تزين الشوارع ولم يتركوا إلا تمثال الغزالة والحسناء كرمز لهزيمتها. منعوا الأسماء التي قد تشير لشيء يخصها. أحرقوا الكتب التي تركتها خلفها والصور، كانت معركة الاسترداد تشتد كل لحظة وتصيب روحه المنهكة شظاياها. كان الهاجون قد غادروا معسكرات تربصهم لينقضوا على كل شيء فيها، كان جسدها المنهك يتشقق إثر الجفاف ولفحات السياط وكانت الغزالة تزداد صلابة ورنيناً.

كان صهد الليبيتشيو يشتد وكان لسانه يتدلى لاهثاً كمشنوق آدمي، وكان ذيله الصغير يختفي تحت بنطاله الواسع هلعاً، وكانت مسيرات الغاضبين في الشوارع التي يظللها سحاب القبلي الحار والمترب تجعله يرتعد رعباً وسط بيته الصغير في حديقة سالمة. كان يرى في كوابيسه جسده معلقاً بمشنقة وذيله مقطوعاً يتلوى بين أقدام الغاضبين، يتلوى محاولاً الهرب كدودة صغيرة يغمرها طوفان الرمل. كان يبحث عن صدر السنيورة وعن ذراعيها، يبحث عن صوتها وهي تقول له «ما بك؟!»، ولكنه لا يسمع إلا أنينها وعذابها وهي تجلد بسياط القبلي ويجرجر جسدها العاري عبر الشوارع والساحات.

كان الفرن الطرابلسي يغلي وكانت ألسنة لهبه تطال كل شيء، الشجر والحدائق والتماثيل والكتب والمباني والبشر والكلاب الضالة والممسوخة مثله.

كان تمثال الغزالة والحسناء الذي ظل حيث نصبه الايطالي ينتصب وسط المسيرات والهتافات وصهد (القبلي) بعد أن صار عارياً تماماً أمام تلك العواصف بعد أن هدموا مبنى البرلمان الذي كان يسنده من الخلف ويقيه بعض تلك العواصف المترببة. كان ميدان الغزالة كما يسميه الليبيون متناسين أن مع الغزالة كانت تلك الحسناء الشمالية الملامح قد تغير بعد هدم مبنى البرلمان وجفاف الحديقة وتكدس القمامة فيها، تحول حقاً إلى ساحة حرب انتهت وأسرت فيها الغزالة الحسناء الجريحة واخذت تجرها عارية ذليلة وسط ركام المعركة. كانت تلك الحسناء ايطالية تماماً وقعت في فخاخ الصحراء الليبية وتم اسرها، هكذا صارت بالنسبة له، سنيورته التي مسخته هكذا على هذه الصورة الآدمية، التي حولته من كلب السنيورة كما كان يسميه الناس في البداية إلى زوج السنيورة وراعي أملاكها.

اندس في بيت الكلب الصغير خائفاً، لم يعد يخرج إلى الشوارع ولا المسيرات، توقف عن العواء والحلم بالعودة إلى جنان الكلاب الأولى، صار حلمه أن يعود إلى حضن السنيورة، أن تسأله كل مرة «ما بك؟!».

صار تمثال الغزالة والحسناء مرثية لسنيورته، لنهايتها المذلة. هل كان ذلك النحات الايطالي وهو يعيش بدايات العهد الفاشي يدرك مصير سنيورته وغزالة الصحراء الليبية ونهاية فصل أخر من تاريخ حروبهما الطويل؟

أنا كاتب هذه الأليغوريا لا اعرف جيداً (انجيلو فينيتي) صاحب هذا التمثال رغم ولعي بفناني ايطاليا من (مايكل أنجلو) وحتى (موديلياني) ولكنه نحت هذا العمل بميدان الغزالة كما صار يعرف فيما بعد، عام 1932م وليس عام 1923م كما ذكرت في سردي السابق، أي في العهد الفاشي وبعد شنق (عمر المختار) وانتصارات روما في الصحراء الليبية. هل

كان (انجيلو) يسارياً معادياً للفاشية ومنفياً إلى واحة طرابلس عقاباً له؟ لا وقت لدي للبحث عن هذه التفاصيل الآن، فقط الآن وبعد وصول بطلي إلى هذا الوضع لا مفر لي من رؤية هذا (الابوكاليبسو) الذي كان يراه ذلك النحات للحسناء الرومية في ليبيا، هكذا عارية وذليلة ومهزومة رغم كل انتصاراتها اثناء نحت هذه المنحوتة الحمالة الأوجه، لا شك أن انجيلو كان يخرج لسانه لموسوليني وغراتسياني شامتاً. هل كان يرى موسوليني وهو يجر على اسفلت روما ويعلق مقلوباً؟

ولكن وبحثاً عن بعض الترابط لهذا السرد الأليغوري السائل لا أعتقد أن الأرملة الطرابلسية قد فعلت بأبوليوس في القرن الثاني للميلاد ما تفعله سالمة ببطلي الممسوخ، كل ما فعلته به هو الغواية بالسكينة والهدوء والسلام، كانت تعد كل شيء لراحته واستقراره. كانت وكطرابلس منذ ذلك الزمن وحتى الآن مرفأ اخيراً لكل التائهين والهاجين، كانت تلك الارملة الطرابلسية مثل الاكاكوسيات ونساء قبيلة البسيلي تأسر الذكر وتصنع منه ما تشاء من الكائنات، لكأن وريثة الليبيات القديمات (السنيورة) وليست سالمة، ولكن حتى أبوليوس عانى ما يعانيه بطلي من عذابات. لقد هاجمه الطرابلسيون واتهموه بالسحر وعملوا ليس على طرده بل قتله ولولا علمه وأدبه وفصاحته لحكم بالموت بتهمة الشعوذة والسحر.

هو الفرن الطرابلسي إذن، حيث لا تتوقف الكائنات عن التحول والمسخ عبر كل العصور، وحيث تئن دائماً إما الغزالة وإما الحسناء، إما لوكيوس حمار أبوليوس الذهبي وإما بطلي، إما أبوليوس وإما أنا.